أرض اليورانيوم

رواية : أرض اليورانيوم

المؤلف : خالد الشيباني

الناشر : ببلومانيا للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى :٢٠١٩

ISBN 978 -977-6754-13-3

رقم الإيداع : ١٣٩٤٠/ ٢٠١٩

ديوى : ٨١٣

١٧٦ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

ج . م . ع

+٢٠١٠٦٥٥٣٤٥٤١

+٢٠١١٥٠٩٩٩٣٤٤

المدير العام : جمال سليمان

المراجعة اللغوية : سعيد أبو زيد الحاج

الإخراج الفنى : أمير مصطفى

أرض اليورانيوم

رواية

خالد الشيباني

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى من كانوا ومن كنَّ واحدًا من أهم الأسباب

التي جعلتني أكتب اليوم روايتي السادسة وعملي الأدبي الثاني عشر

إلى قرائي الأوائل

أسعدهم الله حيث كانوا

خالد

ما لونك .. لأي الأجناس تنتمي ؟

في أي العصور أنت .. و بأي مكان ؟

ما نوعك .. ما ظروفك ؟

بماذا تعتقد .. وكيف تفكر ؟

كل هذا لا يشكل أيّ فرق

فرغم اختلاف الأسئلة

الجميع يواجهون

نفس اختبار .. الإنسانية

خالد الشيباني

الفصل الأول

الإمام الهارب

(الحال لا يَسرُّ يا إمام .. لقد أطاح محمد علي بمولانا عمر مكرم بعد أن ساعده على اعتلاء عرش مصر) كانت الكلمات متشحة بسوادٍ أكبر من سواد الليلة التي غاب عنها القمر تمامًا لكن قائلها لم يكتفِ بما سبب من طاقة سلبية وهمهمات بين الجالسين في درس الإمام " مؤمن السوهاجي" بعد صلاة العشاء وواصلَ حديثه قائلًا (أنا

أصدقكم القول لقد عدتُ للتوِّ من القاهرة .. وعلمتُ بنفي مولانا عمر مكرم إلى دمياط) تفرس الإمام في وجه الرجل الجالس مستندًا على أحد الأعمدة البعيدة، كان رجلًا من أهالي المدينة يحضر إلى دروس العلم على فترات متباعدة، ويجلسُ هادئًا لا يوجه سؤالًا ولا يستفسر عن شيء (ما اسمك يا رجل وماذا كنتَ تصنع في عاصمة المحروسة ؟) قالها الإمام برصانةٍ شديدة وصوتٍ رخيم جعلا الرجل يضطربُ وكأنه متهمٌ وجه له القاضي سؤالًا وأوقفا همهمات الجالسين؛ فالإمام كان رجلًا مهابًا حازمًا ترتسم على ملامحه جديةٌ تكسبه جلالًا شديدًا رغم البشاشة التي تغمر وجهه حين يوزع البسمات على من يرونه؛ ورغم أيام عمره التي لم تصل للأربعين بعد كان حكيمًا محبوبًا من الجميع وذائع الصيت في سوهاج حيث يخطب الجمعة ويحاضر دروس العلم بأكبر مساجدها وفيما جاورها من بلدان لسعة علمه وحسن خلقه؛ شرد الرجل وهو ينظر للإمام طويل القامة معتدل الجسم ذى اللحية المهندمة والحاجبين المتصلين

والنظرات الثاقبة للرجل الذي شرد ولم يجب سؤاله (ألن تجيبني؟) قالها الإمام وهو يرمق الرجل بنظرات ثاقبة جعلته يتلعثم وهو يقول (عفوًا يا شيخنا .. أنا قاسم .. تاجر غلال كنت في حاجة لي بالقاهرة وعلمت أن مولانا عمر مكرم أدين بأنه تقاضى المال مقابل) يقاطعه الإمام بإشارة من يده ويقول (أعرف ما اتهم بهِ الإمام .. وأظنها جميعًا تهمًا ملفقة له) تتسع حدقتا الرجل ويقول (ولكن العديد من المشايخ شهدوا عليه !) يتنهد الإمام ويقول (الله أعلم به وبهم) يصمت الرجل وتمتليء عيناه ببريق الدهاء الخبيث ثم يقول (إن كنت تظن مولانا بريئًا .. ألا يجب أن تدعو الناس لنصرته أم أنه لا خروج على ولي الأمر؟) اهتزت قناديل المسجد المضاءة بالزيت إثر اندفاع رياح خريفية محملة بالأتربة من أبواب المسجد ونوافذه المفتوحة فقام بعض المصلين يغلقونها فيتابعهم الإمام للحظات ثم يضع المصحف من يديه على كرسي صغير أمامه ويقول موجهًا نظره وكلامه للجميع (طاعة ولي الأمر مقرونة بطاعته لله

ورسوله .. أمَّا بالنسبة لشيخنا الجليل عمر مكرم فأنا لم أقل رأيي لأن حقيقة الأمر لم تصلني إلا هذا الصباح وغدًا بمشيئة الله سأخبركم برأيي في خطبة الجمعة .. حينما يحضر الجميع لكي لا يحرّف أو يحور رأيي إن تناقله الناس عن طريق عدد قليل ممن يحضرون الدروس) ساد الاضطراب وجوه الجميع بعد أن أنهى الإمام إجابته فقد اتضح رأيه منها رغم أنه لم يفصح عنه صراحة فالإمام لا يرضى بالإطاحة بعمر مكرم وتلفيق الاتهامات له ولا شكّ في كونه سيدعو الناس إلى نصرة الشيخ الجليل غدًا في خطبة الجمعة .

(رباه .. ما أشد ظلمة هذه الليلة !)

قالها الإمام المتمدد على سجادة الصلاة بسطح منزله محدقًا للسماء المظلمة التي عجزت النجوم عن الظهور فيها رغم غياب القمر وأضواء المنازل الناعسة في هذا الوقت المتأخر

من الليل (ما كنت تشكو من ظلمة الليل قبلًا يا إمام !) قالتها "وديعة" زوجة الإمام الجالسة بجواره منذ فترة ومعها إبريق شاي دون أن يشعر بها بعد أن غرق في أمواج شروده وهو يتأمل السماء ويسبّح لله بعد أن صلى بضع ركعات من قيام الليل (كنت أتمنى أن ينتهى شقاء المحروسة التي عانت لسنين طويلة من العثمانيين الذين أوهمونا أنهم خلفاء الله في الأرض ورعاة الإسلام وما وجدناهم إلا محتلين كالفرنسيين والإنجليز الذين ابتلينا بهم بعدهم .. ينهبون البلاد ويستعبدون العباد .. كنت أتمنى أن ينتهى الأمر بتقلد محمد علي الذي اختاره الشعب ومكنه من الحكم .. لكنه بدأ سريعًا يتخلص ممن ساعدوه لكي ينفرد بالسلطة .. فكأننا استبدلنا أمما تحتلنا بفارس ألباني يحتل العرش) تنهد الإمام مؤمن تنهيدة طويلة كجملته التي وضح على ملامح وديعة زوجته الشاردة أنها تأثرت بها رغم كونها لم تكن بالمتعلمة أو المثقفة .. لكنها تعودت العمق في التفكير منذ زواجها بالإمام العالم والذي مر عليه أكثر من عشرة أعوام

منحوها الكثير من المعلومات الدينية والدنيوية .. كانت وديعة تمتلك حظًا كبيرًا من اسمها بوجهها المدور وتفاصيله البديعة من عينين واسعتين وأنف صغير وشفاه وردية قالت بهما وهي لم تخرج من شرودها بالكامل (ما الذي يجعلك تقول هذا .. ألم تكن فرحًا بهِ حين اعتلى سدة الحكم؟) يعتدل مؤمن في جلسته وينظر لوديعة ولإبريق الشاي فتستدرك كونها نسيت صبّه في الأكواب فتملأ كوبًا لمؤمن وتناوله له فيرتشف رشفتين ويجد الفضول في عينيها يحاصره منتظرًا إجابته فيخفض الكوب وهو يقول (فرحتُ كالجميع بالأمل .. بالتغيير الذي أهلّ بعد أن يئسنا من تغير أيّ شيئ .. من منا لا يفرح بالأمل المشرق كشمس أسطورية فاجأت واد مظلم منذ عصور؟) ظهرت الابتسامة على وجه وديعة لسعادتها ببلاغة زوجها وتشبيهاته الجميلة لكن السعادة سرعان ما تبددت ليحلّ القلق على ملامحها هي ومؤمن حين دوت طرقات محمومة على باب منزلهما في ظلمة منتصف تلك الليلة الليلاء الطويلة.

كانت ذئاب الخوف تعوي في أرجاء المنزل .. فمن ذا الذي سيطرق بابهم بهذه الطريقة الهستيرية في منتصف الليل .. لابدّ وأن هناك مكروهًا قد حدث أو .. سيحدث .

كان أبناء مؤمن ووديعة قد استيقظوا من صوت الطرقات فحاولت الأم طمأنتهم بصعوبة وجلست بينهم في حجرتهم التي أشار لها زوجها بإغلاق بابها عليهم هي وأبناؤهم من الداخل ففعلت ؛ وظلت تهمهم بآيات من القرآن وهي تضم أصغر الأطفال إلى صدرها لتمنعه من البكاء بسبب الخوف الذي ساد اللحظات .

استل مؤمن عصًا خشبية طويلة كانت معلقة على الحائط وسار بخطى متثاقلة نحو الباب الذي يكاد يتهاوى من وقع الطرقات عليه وفور أن استجمع شجاعته ليسأل

عمن يطرق الباب توقف صوت الطرقات فتدفقت الدماء في جسده وقام بفتح الباب ليجد ابن عمه "عبد الحميد" يلهث على الباب وعلى وجهه فزع وكأن أشباح الكون جميعًا تطارده .

(كان الرجل القادم من القاهرة أحد جواسيس الوالي .. كنت مرتابًا منه فتبعته دون أن يشعر بي بعد انصرافه من المسجد .. كان يسير بحذر ويحرص ألا يكون أحد وراءه .. لكني تبعته كظله حتى رأيته يدخل مخفر الشرطة .. أنت تعرف أن شقيق زوجتي "سالم" يعمل هناك منذ فترة .. أتعرف ما أخبرني بهِ ؟) أنهى عبد الحميد جملته التي قالها بصوت خفيض وهو ينهج من فرط الإرهاق فور أن أدخله مؤمن من باب المنزل كانت قامته الطويلة محنية من الحزن والأتربة تعفر جلبابه وشاله إثر وقوعه وهو يعدو في طريقه لمنزل ابن عمه ليعلمه بالخبر المشئوم ليعد العدة له .. لكن

الإمام لم يكن ينتظر سماع ما علم به ابن عمه من شقيق زوجته فلا شكَّ أنهم سيلقون القبض عليه أو يمنعونه من الخطابة بالمسجد على أقل تقدير .. كيف لا وقد فعلوها بأكبر عمائم الدين في مصر عمر مكرم ذاته .

(إنهم ينوون اعتقالك بعد صلاة الفجر .. كي لا تخطب الجمعة .. واستقدموا إمامًا آخر بدلًا منك) قالها عبد الحميد فعقد مؤمن حاجبيه متعجبًا وقال (متى استقدموه .. جاسوسهم جائني الليلة فقط؟) تظهر الحيرة على وجه عبد الحميد لكن مؤمن أنهي حيرته سريعًا عندما استدرك قائلًا (إذن فهم يستدعون أئمة احتياطية من أصحاب الولاء لهم قبل إرسال جاسوسهم لتقصي رأي الإمام الحالي .. فإن شعروا أنه مخالفٌ لهم استبدلوه على الفور .. إنهم يصدرون الأحكام بمجرد الظنّ .. الشك وحده كفيل بجعلهم يبطشون بمن يظنونهم ضدهم .. يالهم من أفاعٍ خبيثة حلت على ديارنا) يتبادل مؤمن وعبد الحميد نظرة حزن تلقي بهم في بئر عميق من الأسى ويقطعها خروج

وديعة وعيناها مغرقتان بالدموع .. فتدب الحمية في عبد الحميد ويقول (يمكننا أن ندافع عنك .. إننا أعيان المدينة والكل يحبك ويتبعك و) يقاطعه مؤمن الذي جلس منكسًا رأسه ويقول (أتظننا نستطيع هزيمة محمد علي الذي اقتنص حكم مصر من الانجليز والعثمانيين .. هيهات يا ابن العم .. كل ما سنجني هو دماؤنا المراقة على الطرقات ونساؤنا المترملات .. ويتم أبناؤنا .. لن أقودكم إلى التهلكة يا ابن العم) تتسع حدقتا عبد الحميد ويقول (أليس جهادًا .. ألن نكون شهداء يا إمامنا .. ألم) يقاطعه مؤمن بإشارة من يده وينظر لوديعة ويقول(أعدي الأبناء للرحيل .. واجمعي كل ما خف وزنه وزادت حاجته) تنساب دمعة على جبين عبد الحميد ويقول (أتهرب يا إمام؟) فيربت مؤمن على كتف عبد الحميد ثم يعانقه عناقًا طويلًا تنساب فيه دموعهما ويقول مؤمن (هذا مصابي أنا وأسرتي .. لا ذنب لكم فيه .. هذا قضاء الله يا ابن العم) يفكر عبد الحميد قليلًا ويقول (وإلى أين تتجه ؟) يفكر مؤمن في إجابة السؤال الذي باغته فلم

يكن فكر إلى أين الفرار وقبل أن يصل إلى إجابة يفاجئه عبد الحميد بقوله (إن سطوة محمد علي تمتد إلى ما بعد حدود السودان فلا طائل من هروبك للجنوب .. وبالطبع لن تهرب باتجاهه في القاهرة) تظهر الدهشة على وجه مؤمن بعد أن سد عبد الحميد عليه الهروب إلى الشمال والجنوب (وإلى أين أتجه إذن ! .. لم تعد لي سوى الواحات في الغرب) يهز عبد الحميد رأسه نفيًا ويقول (لا بل تتجه إلى الشرق .. ليس لجبال البحر الأحمر .. بل للبحر نفسه .. هناك قافلة ستخرج من حدود أسيوط قرب الفجر .. إن تحركتم الآن لحقتم بها) تخرج وديعة من حجرتها والدموع تغرق وجنتيها وتقول (وإلى أين تتجه تلك القافلة؟) يرد عبد الحميد بأسى (إلى البحر لتلحق بمركب التجارة مع الهند المسلمة) تنهار وديعة وتستند على الحائط في حين يقول مؤمن (هناك الجهاد الحق .. ربما أستطيع مشاركة المجاهدين هناك جهادهم ضد المحتل .. أما هنا فلم يعد لنا إلا الهروب) يوجه مؤمن نظره إلى وديعة المستندة على حائط المنزل وتبتلعها دوامة من الحزن والبكاء

ويقول(يمكنك أن تتحرري مني يا حبيبتي .. هذا قدري أنا .. ولا ذنب لكِ في الأمر .. دعي هجرة الأهل والديار لي .. وسيقودك ابن العم مع الأبناء إلى بيت أهلك في قنا .. إن غيَّرَ اللهُ الحال عدت لكم .. وإن طال غيابي) هنا تقاطعه وديعة التي خرجت من دوامة الحزن والبكاء وتقول بحزم (قسمًا بربي إن كان رحيلك إلى الموت لاصطحبتك أنا وأبناؤنا .. إياك أن تنطق حرفًا يا حبيبي) هنا يوقن مؤمن بما لا يدع مجالًا للشكّ أن الله منحه زوجة صالحة وحبيبة صادقة ؛ فلا يعرف الإخلاص إلا من موقف كهذا .

لم ينتظر رجال الشرطة طويلًا ؛ وفور أن أقيمتْ الصلاة بأحد رواد المسجد بعدما استشعروا أن الإمام لن يحضرها معهم ليأمهم فيها ؛ توجه الشرطيون إلى منزل الإمام مؤمن السوهاجي ليجدوه خاليًا فتأكدوا من هروبه .. لم يشغل قائد الشرطة نفسه بمحاولة معرفة إلى أين ذهب

ولم يكلف أحدًا بملاحقته فالهاربون لن يضروا الوالي في شيئ .. الوالي لا يهتم إلا بكسر هامة من يتجرأون بمواجهته .. أما من يؤثرون السلامة ويلوذون بالفرار .. فلا خوف منهم ؛ ورغم عدم تيقّن قائد الشرطة أن سالم الذي تربطه علاقة نسب بابن عم الإمام هو من أفشى السر .. إلا أن سالم واجه عقوبة التسريح من الشرطة بعد تلك الواقعة .. فهذا النظام يكفيه الشكُّ .. الشكُّ وحده .

* * *

هروب في ظلمة الليل ؛ ثم رحيل في قلب الصحراء القاحلة ؛ وأخيرًا شاطيء البحر .. كانت تلك أول مرة ترى فيها وديعة شاطيء البحر .. أهلت عليهم رائحة البحر من بعد

فبدأ الأبناء الخائفون يبتهجون .. كان أكبرهم عليَّ الدين في التاسعة من العمر لكنه كان شديد الحب لوالديه مواظبًا على دروس حفظ القرآن في كتّاب المدينة وكان والده يعدّه للالتحاق بالأزهر مثله عندما يكبر..

(أنت هارب يا إمام أليس كذلك) قالها قائد القافلة لمؤمن بعد أن وضعت القافلة رحالها وجلس الجميع في انتظار السفينة التي ستقلهم إلى الهند المسلمة (باكستان حاليًا) .. صمت مؤمن للحظة ولكنه تبين من ملامح قائد القافلة أنه لا ينوي به شرًّا وخاصة بعد أن سمح لهم بأن يصطحبوا القافلة دون أسئلة (إن كنت تعرف هذا فلماذا سمحت لنا بالارتحال معك؟) قالها مؤمن فطأطأ قائد القافلة رأسه وقال (ومن يتخلى عن إمام مسجد كان يصلي وراءه ويستمع لوعظه عندما يجده يفر بأهله في جنح الليل) يبتسم مؤمن بعد أن علم أن قائد القافلة كان أحد رواد مسجده في سوهاج ويقول (ولكنك لست من مدينتنا) فيرد قائد

القافلة مبتسمًا (نعم .. كنت أصلي الجمعة في مسجدك عندما تكون لي حاجة لديكم .. فأنا تاجر كما تعلم وأبيع بربوع المحروسة ما أجلبه من بهارات وبخور وحرائر من الهند المسلمة.. ولكن قل لي بالله عليك .. مما يهرب عالم بدين الله مثلك؟) ينكس مؤمن رأسه ويقول (من سلطان جائر) تتسع حدقتا قائد القافلة ويقول (أيبرز مخالبه بتلك السرعة .. ويطال بها إمام مثلك !) فيرد مؤمن وهو يفرك وجهه بيديه (لقد نفى عمر مكرم) يصمتان للحظة ثم ينفجران ضاحكين (لك الله يا مصر .. أتظنهم يتبعونك؟) قالها قائد القافلة بقلق فربت الإمام على كتفه ليطمئنه وأشار للسماء وقال (والله خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين) يشرد قائد القافلة للحظة ثم يقول (صدق الله العظيم .. ولكن لمَ الهروب؟) هنا تظهر أشرعة السفينة وهي تقترب من شاطيء البحر فصمتا ووقفا يتابعانها حتى رست على رصيف الميناء الخشبي وبدأ قائد القافلة يستعجل الجميع لإعتلاء السفينة .. وبدأت رحلة البحر.

(ألم يكن هناك حلٌّ آخر سوى الهروب؟)

قالتها دويعة لزوجها الإمام الجالس يقرأ القرآن لأبنه الأصغر المصاب بدوار البحر في قمرتهم بالدور السفلي من السفينة ؛ تفرس مؤمن في وجه زوجته بعد أن تأكد من خلود الصغير للنوم ثم وقف متجهًا للخارج دون أن ينبس ببنت شفة وتبعته وديعة لتجده واقفًا يتأمل النجوم التي زينت السماء وجعلتها كلوحة خلابة والهلال الذي ظهر أخيرًا ليشارك في إعطاء لوحة السماء طابعًا سحريًّا (كنت أظننا لن نرى الهلال مرة أخرى) قالها مؤمن وهو يريح ذراعيه على سور السفينة الخشبي ثم واصل حديثه قائلًا (كانت أمامي حلول كثيرة .. أقربها أن أفعل مثلما فعل العديد من المشايخ وأؤيد ظلم الوالي لعمر مكرم .. أو على الأقل أغض الطرف عن الأمر .. لكن ذلك كان الجبن المتجسد وأنا لم أطق أن أفعل ذلك ثم أعتلي منبر المسجد لأعظ الناس) تنكس وديعة رأسها وتقول بصوت خفيض (وهل الهروب شجاعة؟) يغمض مؤمن عينيه في ألم من جملتها فتندم على قولها

وتقترب منه ممررة كفها على رأسه فيقول (لا .. للأسف هو نصف الطريق بين الجبن والشجاعة .. فحين حانت لحظة المواجهة الحاسمة جبنت فلا واصلت اقتحامي لغابة الشجاعة ولا دخلت إلى مستنقع الجبن وما عاد لي إلا مخرج الهروب بينهما) يصمتان للحظة فتسلل نسمة بادرة تجعل وديعة تلتصق بجسده فيحيطها بذراعه لتدفئتها ويقفان يشاهدان الأمواج المتلاطمة والنجوم المتلألأة للحظات فتقول (ترى ماذا تخبيء لنا الأيام يا حبيبي؟) يتنهد مؤمن تنهيدة طويلة ويقول (لنا الله يا حبيبتي .. لنا الله فاطمئني) .

عبرت السفينة البحر الأحمر ودخلت في بحر العرب لكن عاصفة غير معتادة في هذا الوقت من العام جعلتها تخرج عن مسارها المعتاد .. فوجيء البحارة بالأمطار تضربهم من كل صوب كأنها سهام مصوبة نحوهم وبالرياح تتخطف الأشرعة وتتجه بها نحو المجهول كالصقور التي اقتنصت

فرائسها ؛ عاصفة أنهكت جسد السفينة وركابها ليوم وليلة كاملين وانتهت فجأة كما بدأت فجأة لكنها تركت القبطان تعصره قبضة الحيرة بعدما جن جنون البوصلة وكأن الشياطين تسكنها فأصبحت تعطي ألف اتجاه للشمال في الدقيقة الواحدة .. حلت الغيوم تحجب الشمس والنجوم فلم يعد بإمكان القبطان أن يتكهن بأي شيئ عن الاتجاهات فأمر البحارة بإيقاف المركب وخفض الأشرعة .. ثم أمر باجتماع لركاب السفينة على سطحها ليطلعهم على الأمر..

وقف ركاب السفينة وبحارتها صامتون وكأن على رؤوسهم الطير بعد أن علموا بأنهم بين أكف التيه في البحر.. صمت طويل فلم يكن لدى أحد منهم النصيحة التي يرجوها قبطان السفينة ؛ قطع الصمت قائد القافلة بقوله (كم تكفينا المؤن الحالية يا قبطان السفينة) يهز القبطان رأسه وكأن الأسى يؤرجها بين يديه ويقول (ربما لثلاثة أسابيع ..

فالرحلة كان من المفترض أن تمتد لأسبوعين آخرين على الأكثر) تسري الهمهمات بين الجمع الحائر فيقطعه صوت أحد التجار الأجانب وهو يقول بعربية ركيكة (إذن فلو طال التيه ربما لن نصل إلى وجهتنا أبدًا) ينكس قبطان السفينة رأسه ويصمت فيعلو صوت الهمهمة مرة أخرى ليقطعه هذه المرة صوت أحد البحارة (أليس من الممكن أن يكون معنا شخص غضب الله عليه وسننجو من التيه حين نلقيه في البحر كما حدث في قصة سيدنا يونس عليه السلام) يشتد صوت الهمهمة وتتطاير الجمل والتساؤلات فوق سطح السفينة كأنها طيور بحرية هاجمتها في عرض البحر فيقطعها القبطان بصرخة مفاجئة ويقول (صمتًا .. ما هذا العبث يا قوم؟) هنا يقول قائد السفينة بصوت حزين (ربما هو ليس عبثًا .. معنا إمام وعالم فقيه فلنستفته في الامر .. أليس من الممكن أن يكون بيننا شخص يريد الله منا إلقاءه في البحر كما حدث في قصة يونس عليه السلام يا إمام ؟) تتجه كل الأنظار فجأة للإمام مؤمن الواقف وسط زوجته

وأبنائه وكأنها رؤوس رماح موجهة إليه فيغمض عينيه للحظة محاولًا التفكير في الأمر والبحث عن إجابة شرعية فلم يجد فلا يوجد في الشرع ما يوجب أو يمنع اتخاذ تلك الواقعة سندًا للناس إن تكررت مرة أخرى .. لكن لهيب اللهفة المتصاعد من أعين الواقفين حوله جعله يجيب (ربما .. والله أعلى وأعلم) وكانت ربما هي كل ما يحتاجه الواقفون على سطح السفينة الغارقة في التيه ليجربوا نفس الحل الذي اتبعه ركاب سفينة يونس وبدأ الاقتراع على الفور وفي لحظات وجد الإمام نفسه من اختارته القرعة للمرة الأولى فعلا صوت قائد القافلة بإعادة القرعة كما حدث في قصة يونس عليه السلام لكن الإمام رفض وقال إنه قبل نتيجة القرعة فقد وقع في قلبه أنه مبتلى ابتلاء يونس بعد هروبه من مواجهة مصيره في مصر لكن القرعة أعيدت رغم رفض الإمام لتختاره في المرة الثانية والثالثة وهو واقف في ذهول هو وزوجته وأبناؤه وركاب السفينة ما بين السعداء بالنجاة

المحتملة والحزينون على الإمام الذي سيلقى في البحر أمام أعين أسرته .

عانق الإمام زوجته وأبناءه عناقًا جعلهم يبدون كتمثال واحد لعدة أشخاص لكن الدموع المنهمرة من عيونهم والرعشات في أطرافهم كانت التأكيد أنهم بشر في لحظة من أقسى لحظات الحياة ؛ منح القبطان لوحًا خشبيًا للإمام وزجاجة من الماء وبعض الطعام ولكن عليَّ الدين أكبر الأبناء فاجأ الجميع بقفزه في الماء خلف أبيه صارخًا (أبي) لتتبعه أمه وديعة مصطحبة بقية الأبناء رغم صرخات الرفض من زوجها وتوسلات ركاب السفينة .. كانت كأنها لا تسمع أحدًا وهي تتجه لتصطحب زوجها نحو الموت كما أقسمت من قبل .. فقد كان قسمًا صادقًا من امرأة صادقة .

وقف الجميع يتأملون الأسرة الممسكة باللوح الخشبي في عرض البحر وأصغر الأطفال يبكي من برودة الماء للحظات أنهاها الإمام بقوله (اذهبوا في رعاية الله .. صل استخارة وتوكل على الله يا قبطان السفينة) .. جلس قائد القافلة يبكي منهارًا فهو الذي وجه السؤال للإمام .. لقد كان يشك أن مؤمن هو المقصود لكن لم يتخيل أن الله سيرتب الأمر هكذا ؛ أما القبطان فقد صلى ركعتي استخارة كما نصحه الإمام واختار اتجاها ووجه الدفة نحوه تاركًا خلفه الإمام وأسرته متعلقين بلوح خشبي في عرض البحر .. أو فلنقل بدقة .. في قلب المحيط الهندي .

بعد ساعات من ابتعاد السفينة في المسار الذي اختاره القبطان انقشعت الغيوم من السماء وعادت البوصلة للعمل مرة أخرى ؛ لم يطل جدال قائد القافلة مع قبطان السفينة المليئة بالتجار الأجانب القادمين من أوروبا

ومتجهين بتجارتهم للهند والذين لم يكونوا ليسمحوا بالعودة للتيه مرة أخرى أبدًا بعد نجاتهم منه (كانت مشيئة إلهية لا شكّ في هذا يا قائد القافلة) قالها القبطان فنكس قائد القافلة رأسه ووقف ينظر في اتجاه تركهم للإمام وأسرته .. لقد ابتعدوا كثيرًا عنهم وليس هناك أمل في العودة إليهم ..

زادت برودة الماء مع اقتراب الليل لكنّ الدعاء الذي لم يفارق لسان الإمام منذ لامس جسده الماء كان يمنح الجميع شعورًا بالطمأنينة (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) ربما رددها الإمام وزوجته لألاف المرات طوال النهار وطوال تلك الليلة الباردة ،

نفذ الماء والطعام سريعًا رغم حرص الأبوين على أن يتركاهما لأبنائهم لكن هذا القدر الضئيل من الماء والطعام

لم يصمد طويلًا أمام أفواه الأبناء الأربعة ؛ هنا بدأ الإمام يوقن أنهم رغم تحملهم للبرد لن يتحملوا الجوع والعطش طويلًا .. وبدأ يجهز قلبه للقاء الله هو وأسرته ويستغفره عمّا فعل من ذنوب في حياته؛ مع أول ضوء للنهار كان جسده يتهالك من التعب والجوع والعطش؛ وكان خوفه من أن يلقى الله وهو غاضب عليه لهروبه يزيد من ضيق نفسه كل حين .. ولكن ربما أعدّ الله له هذه النهاية تكفيرًا عن ذنبه .. تلك كانت الفكرة التي تطمئنه بعض الشيئ .

ظهور الزعنفة الطويلة التي برزت على سطح الماء وهي تسبح تجاههم بخرت الأفكار والإرهاق والتعب ومنحت مؤمن طاقة فجائية فبدأ في السباحة دافعًا اللوح الخشبي في الاتجاه الآخر (ادفعوا اللوح معي جدفوا بأقدامكم) قالها مؤمن ليتحول الجميع إلى آلة تجديف ولكن سرعة اقتراب زعنفة القرش الضخمة كانت كبيرة وكان سيلحق بهم لا

محالة .. هنا تظهر ثلاثة زعانف من تحت الماء لدرافيل رمادية تدفع اللوح الخشبي معهم بسرعة فيتشبث به مؤمن وأسرته وتظل الدرافيل تدفع اللوح مبتعدة عن القرش لدقائق طويلة حتى تظهر حافة صخرية يصطدم بها اللوح الخشبي فيبدأ مؤمن في مساعدة زوجته وأبنائه ويصعد أخيرًا بعد أن كاد فك القرش يلتهم قدمه .. التقط الجميع أنفاسهم للحظات وهم لا يصدقون نجاتهم من الموت المحقق بأنياب القرش وخروجهم من الماء إلى سطح تلك الصخور .. وبعد ابتعاد القرش في محاولة يائسة منه للحاق بأي من الدرافيل الثلاثة التي كانت قد ابتعدت بالفعل؛ انطلقت صيحات الفرح من أفواه أسرة الإمام مؤمن السوهاجي أخيرًا .. فرغم كونهم مازلوا في قلب الضياع والتيه إلا أنهم .. ما زالوا معًا .. وعلى قيد الحياة .

لم تدم لحظات السعادة طويلًا؛ فرؤية خط الأشجار الممتد على بعد عدة كيلومترات منحهم أملًا كبيرًا في وجود يابسة خلفه خاصة مع ظهور جبل على بعد عدة كيلومترات بعدها .. لكن بقايا السفينتين الغارقتين منذ زمن على حافة الحاجز الصخري كانت مصدر إحباط لهم والأدهى هو الرؤوس والأطراف المدببة كأسنة الرماح والمنتشرة على الصخور المتكونة من الشعاب المرجانية في الطريق لخط الأشجار ؛ خاصة وأحذية الجميع أما فقدت أو تهرأت أثناء وجدهم بالماء .

* * *

جلست أسرة الإمام تفكر كيف تعبر طريقًا من الرؤوس والأطراف الجارحة (ربما ليست هناك أرضًا بعد خط الأشجار) قالتها وديعة محاولة إلغاء فكرة السير في هذا الطريق فنكس مؤمن رأسه وقال (لا بدّ وأن هناك أرضًا .. بين خط الأشجار والجبل .. إنها مساحة كبيرة ونمو هذا العدد من الأشجار يدل على وجود تربة خصبة وربما مصدر للماء العذب) صمتوا للحظة فقال الابن عليُّ الدين (لماذا قلت ربما يا أبي.. ألم يكن بإمكانك أن تقول لا يجوز) يتعجب مؤمن من كون ابنه ما زال يفكر في السفينة وما حدث بها رغم كل ما مروا به فيبتسم ويقول (يا ولدي .. إن العالِم الذي يفتي بأهواء نفسه إن كان الأمر يخصه يخون أمانة الفتوى .. ويقينه بالله .. أترضى ذلك لأبيك؟) يهز الابن رأسه نفيًا فيواصل مؤمن قائلًا (لا بدّ وأن لنا قدرًا في تلك الجزيرة خلف خط الأشجار .. فلنصنع من ملابسنا ما يقي أرجلنا الرؤوس والأطراف الجارحة قدر المستطاع فجلوسنا هنا بلا طعام أو ماء هو الهلاك المحقق وأجسادنا المبتلة

المعرضة للهواء ستصيبنا بنزلات برد إن لم نستتر بتلك الأشجار سريعًا) .

كان طريقًا من الألم والجراح النازفة .. لكنهم واصلوا السير فيه .. كتمت وديعة دموعها وتأوهاتها بصعوبة لكي لا تصعب الأمر على زوجها وأبنائها .. لكن أصغر الأبناء انفجر باكيًا من الألم فما كان من والده إلا أن يحمله فوق كتفيه فتتضاعف آلامه وجراحه بسبب الوزن الزائد؛ ساعات من الرهبة والخوف من السقوط .. فالسقوط على تلك الأطراف والرؤوس الصخرية الحادة المدببة هو الموت المحقق لا محالة .. وفي النهاية وصلوا إلى حاجز الأشجار وفور عبورهم له ظهرت أرض الجزيرة الممتدة لعدة كيلومترات حتى سفح الجبل والتي تنتشر بها الأشجار وكأنها غابة .. سجد مؤمن سجدة شكر لله ثم استلقى على ظهره

من فرط التعب ؛ فاستلقوا واحدًا تلو الآخر بجواره يتأوهون من الألم والدماء تغطي قطع الملابس على أرجلهم ..

تسللت نحوهم نسمة باردة جعلت وديعة تحاول الاستدفاء في حضن زوجها وتدفئة أبنائهم بين ذراعيها .. هنا شعر مؤمن بوخزة في رقبته ثم سمع صرخة زوجته عند تعرضها لنفس الوخزة وتلاهم الأبناء الأربعة .. حاول مؤمن الوقوف لكنه فوجيء بالخدر يتملك جسده وعيناه تتثاقلان وكان آخر ما رآه هو سبب الوخزات التي أصابتهم .. كان رجلًا عاريًا إلا من قطعة قماش تغطي عورته .. امتلأ جسده ووجهه الخمريان بالأصباغ ويمسك بما يشبه الناي ويطلق منه سهامًا مخدرة .. خدرت أسرة الإمام بأكملها .

مزيج عجيب من الروائح والأدخنة احتلَّ رئة الإمام وجعله يفتح عينيه المتثاقلتين بهدوءٍ شديد رغم فزعه عند إغلاقها .. وجد نفسه متمدد على فراش من لحاء الأشجار التي شعر بملمسها كالخيش .. داخل كوخ من أوراق الأشجار وجذوع النخيل مغطي بجلود حيوانات مختلفة؛ تذكر أسرته فانتفض مفزوعًا ليجدهم متمددين بجواره داخل الكوخ فتنفس الصعداء واطمئن عليهم بنظرات فاحصة ثم استلقى مرة أخرى؛ لم يطلْ تفكيره في طبيعة من قاموا بأسرهم فجأة ثم وضعوهم معًا داخل هذا الكوخ وقاموا بعلاج أرجلهم المتضررة من عبور طريق الضخور مدببة الأطراف فابتسامة الفتاة التي أطلت عليهم من كوة الكوخ وبراءة ملامحها وبشاشتها بددت أي مخاوف بنفسه .

الإشارات والإيماءات كانت وسيلة التواصل الوحيدة بين أسرة الإمام وقبيلة البدائيين الذين استوطنوا الجزيرة

بظروف مشابهة ولكن من أجيال عديدة .. ترك البدائيون الكوخ للإمام وأسرته وعلموه طرق جلب الطعام من صيد الأسماك من البحيرة العذبة وصيد الحيوانات والطيور المتواجدة في الغابة ممتدة الأطراف حتى سفح الجبل .. وبقى الحال على ما هو عليه لعدة أيام.

(ربما أتوا من إحدى السفينتين الغارقتين على الشاطئ) قالتها وديعة لزوجها الجالس يتأمل الشمس التي تتلاشى بين أمواج المحيط الممتد إلى ما لا نهاية أمامهم ويفصلهم عنه طريق الصخور الطويل الذي عبروه في طريقهم للجزيرة فأجابها (ربما .. ولكن لمن السفينة الأخرى .. أم أنهما من سفينتين مختلفتين .. فملامحهم مختلفة؛ بعض أبناء القبيلة ذوي ملامح هندية وآخرون منهم ذوو ملامح أسيوية .. والبعض ذوو ملامح عربية .. .. أتلاحظين أن السماء هنا مختلفة؟) تفقدت وديعة السماء التي سرعان ما غمرتها

النجوم التي بدت قريبة جدًّا عن نجوم سماء سوهاج فهزت وديعة رأسها بعلامة الإيجاب؛ هنا اقترب أكبر أبناء الإمام وجلس بجوارهم دون أن يتحدث فتبادل الزوجان نظرة دهشة ثم قالت الأم (ألن تلقي سلام الله علينا يا ابن الإمام .. هل اطمأنيت لنوم جميع إخوتك) يهز الصبي رأسه إيجابًا فتقول وديعة (حمدًا لله) ينكس الصبي رأسه ويقول (ولماذا ألقانا الله الذي ألقانا في هذه الأرض الغريبة بعيدًا عن أهلنا؟) يكفهر وجه وديعة وتقول بفزع (ماذا تقول يا ولد .. اِستغفرْ ربك .. أتعترض على قدر الله بدلًا من شكره على نجاتنا من الموت المحقق في البحر) تلكز المرأة ولدها في ظهره فيظل منكسًا رأسه دون حراك أو إظهار التألم فيتنهد الإمام ويقول (أتريد قدرًا بلا مشكلات .. ولا أزمات أو صراعات ،، أتريد ألا يعرف الحزن الطريق لمدينة قلبك .. فتعيش عمرًا من السعادة الصافية .. لا تفقد فيه عزيزًا ولا يفقدك الأعزاء .. أتريد أن تصل لكل طموحاتك بلا معاناة وألا تفقد شيئا تمتلكه أبدًا .. تلك الأمنيات غير موجودة على سطح

هذا الكوكب .. فلا ترهق نفسك بالبحث عنها .. وتقبّل حياتك كما هي .. فمهما بلغت معاناتك فيها تظل منحة عظيمة من الله) يشرد الصبي للحظات وهو يغوص في كلمات أبيه التي منحته شعورًا غريبًا بالسكينة ثم يقول (لن أدرس الآن بالأزهر كما كنت تتمنى يا أبي) تلمع عينا الإمام من أثر الدموع التي فاجأتها ويقول (من يدري يا بنيّ .. ربما أعادنا الله إلى ديارنا ففعلت ما نتمنى .. وربما قدر لنا المكوث هنا لحكمة لا يعلمها سواه .. كل أقدار الله خير للمؤمنين .. فكن منهم تأمن شرها) هنا ينبعث صوت غناء أبناء القبيلة الذين التفوا حول حلقة كبيرة من النار كعادتهم كل ليلة قمرية؛ جلس الإمام يستمع إليهم لساعات طويلة .. حتى بعد انصراف زوجته وابنه .. لم يكن يفهم شيئًا من لغتهم لكن جملة تتكرر في غنائهم كانت تثير مشاعر مختلطة في نفسه فهو يكاد يجزم أنهم يقولون (الله الله لله .. الله الله لله) .. ولكن بتخفيف الهاء .. ترى ماذا تعني تلك الجملة في لغتهم؟ لم يكن يدري .. ولم تكن هناك وسيلة للترجمة .. توقف

عقله عن التفكير من كثرة الأفكار التي تحاصره فقام ليصلي ركتعين وفور أن بدأ يرتل القرآن شعر بوقوف شخص على بعد أمتار قليلة منه من صوت بكاء انبعث عن يمينه لكنه استعاذ بالله من الشيطان وأكمل صلاته وفور أن أنهاها اكتشف سبب البكاء؛ كان زعيم القبيلة الواقف على بعد أمتار قليلة يتفقده وهو يصلي والدموع تنساب من عينيه؛ لم يدرِ الإمام ماذا يفعل وما يقول وحاول أن يفسر للزعيم أنه كان يصلي فنطق الرجل كلمة واحدة بلغته (هام) لم يفهم الإمام قصد زعيم القبيلة لكنه تبعه في كما أشار له وسار خلفه في الغابة حتى وصلوا لمكان لم يتخيل وجوده على الجزيرة .. كانت ساحة كبيرة فيها أسوار خشبية ممتدة وثلاث بوابات مما يدلُّ على أن سكانها أكثر تحضرًا من قبيلة البدائيين؛ سار زعيم القبيلة نحو أصغر البوابات وطرقها فخرج له رجل في السبعين من العمر لكنه طويل القامة ممتليء الجسم له شعر ولحية قصيرة كلاهما بلون الثلج من شدة بياضهما؛ ملامحه تشع طيبة ونقاء ولكن الحزن

العميق يطلُّ من عينيه الواسعتين كان ذلك "هام" الذي يقصده زعيم القبيلة وبعد أن تبادل جمل قصيرة بلغته معه ازداد اتساع عيني الرجل الضخم وقال موجها حديثه للإمام (أتتحدث العربية؟) دهش الإمام من السؤال كان سرُّ دهشته أنه فهمه فهو موجه له بالعربية ويسأل عما إذا كان يفهمها فأجاب بلهفة (نعم) هز الرجل الضخم رأسه وابتسم قائلًا (أخيرًا أتانا المحيط بالعرب .. أنا هاموراس والجميع يدعوني هام .. غرقت السفينة التي كنت أستقلها وأنا في العاشرة من العمر وحملني لوح خشبي إلى هنا .. فرباني أبناء القبيلة وصرت أعرف لغتهم كما أعرف اللغة العربية .. لأنني مسلم من الهند المسلمة ... كان والدي من أصول عربية فتعلمت لغته الأم منذ الصغر؛ وكان رحمة الله عليه يمتلك العديد من سفن الصيد) طالت السهرة التي جمعت بين هاموراس وزعيم القبيلة والإمام الذي عرف أن الجزيرة بها سكان آخرون من السفينتين الغارقتين وهم أصحاب البوابتين الخشبيتين المجاروتين لبوابة هاموراس الذي أردف قائلًا

(نجى من السفينة الأولى التي غرقت منذ أربعين عامًا أحد عشر رجلًا تزوجوا من بنات القبيلة وعاشوا مع زوجاتهم وأبنائهم معتزلين أهل الجزيرة خلف هذا السور) أشار هاموراس بيده للسور المرتفع ثم تابع حديثه (أما السفينة الثانية فقد غرقت منذ بضعة أعوام ونجى منها قرابة الخمسين شخصًا من الرجال والنساء وهم يعيشون خلف هذا السور المنخفض لكنهم يتبادلون الزيارات مع أهل القبيلة منذ وصولهم) يشرد الإمام قليلًا ثم يقول محدثًا هاموراس (ولماذا تسكن هنا وليس مع القبيلة التي قامت بتربيتك) يبتسم هاموراس ويقول (لقد تزوج أكبر أبنائي بإحدى بنات الساكنين خلف الأسوار المرتفعة وتزوج الأصغر بإحدى نساء الساكنين خلف الأسوار المنخفضة ففضلتُ البقاء بقرب أبنائي لأرعاهم هم وأبناؤهم) شعر الإمام بالقلق في نبرات صوت هاموراس فعقد حاجبيه وتبادل معه نظرة ذات مغزى وقال(ولماذا تشعر بقلقك على أبنائك) فتنهد هاموراس وأجاب (الساكنون خلف الأسوار المرتفعة

يعتنقون ديانة الرجلين الناجيين وهما كانا يستقلان سفينة تابعة لشركة الشرق الهندية الهولندية وكلاهما من اليهود؛ أما أصحاب الأسوار المنخفضة فسفينتهم كانت تابعة لشركة الشرق الهندية الإنجليزية وهم من المسيحيين؛ وأنا كما قلتُ لك مسلم ولكني لا أعرف عن الإسلام سوى القليل الذي تعلمته في طفولتي قبل غرق سفينتي ومجيئي إلى هنا .. وأخاف على أبنائي وأحفادي من التأثر بديانات المحيطين بهم فأنا لم أعلمهم عن الإسلام سوى القليل) يهز الإمام رأسه وقبل أن ينطق ببنت شفة يقول زعيم القبيلة الصامت جملة بلغته فيترجمها هاموراس للإمام (هو يسألك عما كنت تقول بصوتك الرخيم بالعربية عندما رآك على الشاطئ) يفكر الإمام قليلًا ويقول(كنت أصلي وأتلو آيات من القرآن) تتسع حدقتا هاموراس ويقول (أتحفظ شيئًا من القرآن) ينفجر الإمام ضاحكًا ويقول (أنا أحفظ القرآن وآلاف الأحاديث النبوية الشريفة عن ظهر قلب وأحفظ كتب التفسير والشريعة والفقه .. أتعرف أن موهبتي الأولى هي

الحفظ يا عزيزي) يتبادل الرجلان نظرة طويلة يقطعها زعيم القبيلة بجملة جديدة يترجمها هاموراس (هو يرجوك أن تكرر ما كنت تقرأ من القرآن .. لقد سمع مني فاتحة الكتاب كثيرًا حينما كنت أعيش بينهم فلم أكن أصلي إلا بها لكوني لا أحفظ سواها .. ومنها عرف أنك تتحدث نفس لغتي) هنا يبدأ الإمام في ترتيل آيات من كتاب الله وتظل عينا زعيم القبيلة تدمعان طوال تلك الليلة .. رغم كونه لم يكن يفهم العربية ؛ وعندما استفسر الإمام عن معنى (الله الله لله) التي يتغنى بها أبناء القبيلة في سامرهم أخبره هاموراس أن معناها "يا راحة الأرواح" في لغتهم فعلم الإمام أن الله لم يُذْهِبْ عمرَه سدى بل هاجر به إلى أرض أخرى يحتاج أهلها إلى التوحيد وإلى راحة الأرواح .. بالله .

في الأيام اللاحقة علم هاموراس لغة القبيلة للإمام وأسرته؛ لم يستغرق الأمر سوى أسابيع قليلة فهي لغة بدائية سهلة استوعبوها بسهولة؛ وعلم الإمام لهاموراس

وعائلته قواعد الدين الإسلامي الذي كانوا ينتمون له بالإسم فقط .. وعكف يعلم البدائيين بعض طرق العيش والصيد الحديثة وبعد شهور أُنْشِئ مسجدٌ صغير بالجزيرة تصلى فيه الفرائض ويتلقى فيه الجميع دروس العلم .

كان فضول أبناء القبيلة كبيرًا للتعرف على الدين الإسلامي الذي كان زعيم القبيلة أول من أعلن اعتناقه له ثم تبعه الكثيرون؛ لكن ترجمة هاموراس لحديث الإمام لم تكن كافية خاصة مع كثرة مرض الشيخ المسن؛ هنا بدأ الإمام رحلة تعليم أبناء القبيلة للعربية والتي استغرقت سنوات على عكس لغتهم التي تعلمها في أسابيع فأدرك الإمام أن اللغة الأصعب في التعلم على من لا يتقنونها والتي يتعلم أهلها اللغات الأخرى بطريقة أسهل لابدّ وأن تكون اللغة الأم التي تفرعت منها اللغات الأخرى؛ تمامًا كبَشرَة يحتمل أصحابها أشعة شمس حارقة قوية مركزة فيكون تعرضهم

لأشعة الشمس المعتدلة يسيرًا عليهم أما من اعتادوا التعرض للشمس المعتدلة أو الأقل تركيزًا فهم يستغرقون وقتًا طويلًا للتأقلم مع الطقس الحار ؛ هنا توصل الإمام إلى أن أصعب اللغات في التعلم على غير أهلها لابدَّ وأنها أصل كل اللغات الأخرى.

* * *

اقترب عددُ المسلمين من المئة؛ لكنَّ غير المسلمين من القبيلة كان أكثر بكثير؛ بعضهم كان من غير المحبين لزعيم القبيلة والذين رغبوا التخلص من جزء من سلطته عليهم بعدم اتباع الدين الذي اتبعه؛ أما الأغلبية منهم فكانوا من المترددين الذين يخشون قيود الدين التي رأوها على من اتبعوه من الزي المحتشم للنساء وعدم ممارسة الجنس إلا

للمتزوجين وخلافه؛ كان أكبر المعارضين "دانوتا" وهو رجل أسلمت زوجته ولم يسلم هو فرفضت معاشرته أو العيش معه إلا إن أسلم ولكرهه لزعيم القبيلة أصر على ألا يسلم وبدأ في التحريض على المسلمين سرًّا في البداية ثم علانية عندما أشعل الفتنة في القبيلة بعراك أعدَّ له بين شخصين أحدهما مسلم والآخر غير مسلم حوله دانوتا إلى عراك طائفي وبعد عدة ليالٍ على هذا العراك كان كون جبهة رفض للإسلام من غير المسلمين والذين أعدوا أنفسهم لإحراق المسجد ومهاجمة المسلمين.

(أنا أرى أن نأخذ المسلمين ونهرب إلى سفح الجبل يا إمام .. فعددهم أكبر منا بعدة أضعاف .. كما إن تسليحهم أفضل منا بكثير ليس لدينا إلا غصون الأشجار وعدة سكاكين حجرية) قالها هاموراس للإمام الجالس مسندًا ظهره لحائط المسجد وطواحين الأفكار تدور بجنون في رأسه

والمسلمون مجتمعون في ساحة المسجد والقلق يعتصر جميع الوجوه؛ ظلّ هاموراس منتظرًا ردّ الإمام لدقائق حتى يئس من الرد وعندما هم بالحديث مرة أخرى يفاجأه قول الإمام (لن نهرب؛ لقد حاولتَ التحدث معهم أنت وزعيم القبيلة فأصروا على رأيهم .. ورغم كوننا لم نؤذهم فهم يصرون على إحراق المسجد وتخيير المسلمين ما بين ترك الإسلام أو الإيذاء وربما القتل .. ولذا فإن هربنا خسرنا مسجدنا وروحنا المعنوية ثم طاردونا أينما ذهبنا حتى يقضوا علينا؛ أعرف أنهم يفوقوننا عددًا وعتادًا فدانوتا الخبيث يعدُّ الأسلحة منذ شهور لهذه الليلة .. لكنَّ أهل الحق كثيرًا ما انتصروا وهم في مثل ظروفنا ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه خير مثال وقدوة) هنا يقف الإمام ويعتلي درجتي المنبر الخشبي ووجَّه حديثه للمسلمين المجتمعين في المسجد (أيها المسلمون .. أعرف أنني طالما عرفتكم بالإسلام كدين التآخي والتراحم ولكنّ الجهاد مفروض فيه دفاعًا عنه وعن أهله ومقدساته .. فمن رغب منكم التمسك بدين الله

فليقف في وجه من أرادوا العدوان دون وجه حق .. فإما انتصر ونصر دينه ونفسه أو لقى الله شهيدًا مكرمًا مغفورًا له ولسبعين من أهله) ثم تلا قوله تعالى عدة مرات: {والله متم نوره ولو كره الكافرون}، صمت المسلمون للحظات ثم تعالت الهتافات والتكبيرات في أرجاء المسجد؛ هتافات وتكبيرات بددت ثقة المجتمعين خارجه خلف دانوتا على بعد أمتار من المسجد وهم يحملون الأسلحة والشعلات النارية ويظنون أنفسهم منتصرين لا محالة فهم أضعاف المسلمين في العدد ومعهم أسلحة كثيرة بعد أن أعدوا للأمر سرًّا منذ شهور؛ بدأ المسلمون في الخروج من المسجد والتراص في صفوف أمامه وهم يحملون فروع الأشجار والسكاكين الحجرية فبدأ بعض أتباع دانوتا يشعرون بالقلق من العزيمة الواضحة في أعين المسلمين ووجوههم الصارمة؛ فقرر دانوتا الهجوم سريعًا قبل أن يستشري القلق في الجميع؛ للحظات بدت الغلبة لدانوتا وجيشه وبالفعل بدأوا في إلقاء الشعلات النارية على المسجد؛ ولكن .. وحين بدأت

النيران في الاشتعال فاجأت السماء الجميع بأمطار غزيرة أطفأت النيران وأشعلت الحماس في نفوس المسلمين بعد أن دافع الله عن بيته فهاجم المسلمون بحماسة شديدة حتى استقر رمح في صدر هاموراس الشيخ المسن فانفجر الغضب بنفس الإمام وتصدر الصفوف بعد أن كان المسلمون يحاولون الحفاظ عليه في آخر الصفوف لكونه العالم الوحيد بدين الله فيهم؛ تقدم الإمام ممسكًا بفرع شجرة وكأنه نبوت من نبابيت الصعيد التي طالما مارس بها التحطيب وظل يضرب مهاجمي المسجد وخلفه المسلمون ففزع دانوتا ومن حوله وظلوا يتراجعون حتى قتل الإمام دانوتا فرفع أتباعه راية الاستسلام.

تعجب المهزومون من نبل أخلاق المنتصرين فاقتنعوا بأنهم يتبعون رسالة سماوية فاتبعوها مثلهم ولم يصر على

العناد إلا عدد قليل فضلوا البقاء بلا دين وسكنوا سفح الجبل.

أجهش "قاصي" أكبر أبناء هاموراس بالبكاء وهم يقومون بدفن أبيه ولكنَّ الإمام كان يعرف أن الابن الذي اختفى في المعركة كان منافقًا؛ ربما أقنعه أنسباؤه من اليهود أن دينهم هو الحق وربما صحبهم طاعة لأبيه ليس إلا؛ لكنّ ما استرعى انتباه الإمام هو صمت المسيحيين واليهود وتعاميهم عند مهاجمة اللادينيين للمسجد .. هنا أدرك الإمام أن المسلمين لم يكونوا آمنين على هذه الأرض وأن الضغائن موجودة في نفوس المحيطين بهم وأنهم كانوا يتمنون زوالهم بأيدي اللادينيين دون عناء منهم؛ فقرر الإمام إحاطة المسجد ومنازل المسلمين بالأسوار كمنازل أصحاب الأسوار المرتفعة والمنخفضة لحمايتها ولكنها لم تكن أسوارٌ مرتفعةً ولا منخفضة لقد اختاورا الوسطية بينهما.

اشتدَّ قلق الساكنين خلف الأسوار المرتفعة فالمعركة التي ظنوها ستقضي على المسلمين والإسلام بالجزيرة ضاعفت أعدادهم وأعطتهم روحًا معنويةً مرتفعةً وسطوة على أكبر مساحة في الجزيرة دون منازع بعد أن فر اللادينيين إلى سفح الجبل ؛ والأدهي بعد أن شيد المسلمون أسوارهم وأصبحوا آمنين في مسجدهم ومنازلهم.

(يجب أن تسكن بينهم يا قاصي) قالها كبير اليهود لقاصي حينما أخبره برغبته على أن يعود ليعيش هو وأسرته معهم خلف الأسوار المرتفعة (أنا أكرههم .. لقد كانوا السبب في قتل والدي) يعقد كبير اليهود حاجبيه ويرسم حزنًا مصطنعًا على وجهه (رحم الرب أبيك الراحل .. كان رجلًا طيبًا فاستغلوا طيبته وراح ضحيتهم؛ ولكن الخطر يحدق الآن بك أنت وزوجتك وأبنائك؛ أنت لا تعرف الإسلام إنه يعطي أتباعه الرغبة لفعل المستحيل؛ لقد جعل رعاة الغنم يصلون إلى الهند جنوبًا والصين شرقًا والقسطنطينية شمالًا

وإسبانيا غربًا ؛ ولولا الكفاح والتفاني في معاداتهم والوقيعة بينهم لظلوا في إسبانيا إلى يومنا هذا؛ أتعرف أنهم هزموا جيوش أوروبا مجتمعة لقرنين من الزمان؛ فعندما يتحدون لا يقهرون أبدًا؛ لذا فيجب أن تظل بينهم لتكون عينًا وأذنًا لنا والأهم لسانًا يفرق بينهم دائمًا ويحول دون اتحادهم). كان المكر والخبث والحقد متجسدين بملامح كبير اليهود المختفية خلف لحيته التي كادت تصل لمنتصف خده لكنهم كانا واضحين في عينيه وصوته .

رأى الإمام أن مجتمع القبيلة يجب أن يتحول لمجتمع زراعي بدلًا من اعتماده على الصيد وهنا .. بدأ ينتقي النباتات الصالحة للأكل في الغابة ويزرعها بكثافة وجمع بعض الحيوانات والطيور وبدأ في تربيتها بحظائر وذرائب؛ بحث كثيرًا عن القمح لكنه لم يجده؛ كانت تكفيه عدة سنابل ليبدأ الزراعة لكنه لم يجد حبة واحدة في الجزيرة؛

كانت سعادته غامرة عندما علم أن كلا الساكنين خلف الأسوار المرتفعة والمنخفضة يزرعون القمح لكنه لم يدرِ من أين جاءوا به وكان شبه متأكدٍ أنهم سيرفضون إعطاءهم بعض السنابل لزراعته (ربما جاءوا بالقمح من خارج الجزيرة معهم) قالها أكبر أبناء الإمام الذي أصبح شابًا يافعًا رغم كونه في الخامسة عشر من العمر لأبيه الجالس في المسجد بعد انتهاء صلاة الظهر؛ ينظر الإمام لابنه ثم يربت على كتفه ويقف ليفعل الشاب مثله ويتبعه إلى خارج المسجد.

سار الإمام مع ابنه في الغابة بحثًا عن القمح حتى اقترب موعد صلاة العصر فاتجها لطريق العودة كان رأي الإمام أن الساكنين خلف الأسوار المرتفعة والمنخفضة وجدوا القمح على الجزيرة لكنهم جرفوا أرضه منه ليحرموا البدائيين من التطور والاتجاه للزراعة؛ فأي مجتمع بدائي

يجب أن يتطور لمجتمع زراعي أولًا ثم يتحول للصناعة والتجارة بعد ذلك والقمح سيد المزروعات فهو الخبز ودقيق المعجنات بأكلمها .. لكن رحلة البحث لم تكن بلا طائل هذه المرة فرغم أن الإمام لم يجد قمحًا إلا أنه وجد عيدانًا من الذرة؛ ربما كانت تلك خطوة أولى لعمل دقيق وخبز رغم أن دقيق الذرة وخبزه مختلفان عن دقيق القمح وخبزه إلا أنها بداية وشيئ أفضل من لا شيئ؛ والذرة نفسها محصول محبب كانت نفس الإمام تشتاق إليه من ذكرياته في الصعيد.

(لماذا حاربت اللادينيين وهربت من مواجهة الوالي ؛ ففي كلتا المرتين كان هناك مؤيديين سيناصرونك) قالها الشاب لأبيه الإمام وهم يشاركون بعض أفراد القبيلة زراعة حبات الذرة في الأرض طأطأ الإمام رأسه وقال (المجاهد لا يجاهد لأنه يستطيع الجهاد ويجد من يناصرونه فحسب؛

يجب أن يكون الجهاد له سبب حتميٌّ وإلا أصبح حربًا لجلب المنفعة أو المجد الشخصيّ وأعاذنا الله من ذلك فإراقة الدم من أجل هذين السببين من أكبر الموبقات والجرائم؛ الوالي لم يكن خطرًا على الدين؛ كان فسادًا في الحكم ولكنه حاكمٌ مسلمٌ سيقيم شعائر الله ولا يمنع أن يذكر اسمه في مساجده ولا يسعي في خرابها؛ وربما كانت مواجهته فتنة راح ضحيتها الآلاف؛ أما اللادينيون فقد كانوا يريدون القضاء على الدين وإراقة دم أتباعه ولم يكن هنالك مفرٌّ من مواجهتهم).

وقف الإمام يحدق في كوز الذرة الأخير للحظات ثم ناوله للزراع ليغرسوا حباته في الأرض فرغم شوقه الشديد لكوز من الذرة لم يكن ليضيع حباته الثمينة بأكلها بدلًا من ذراعتها؛ لمح زعيم القبيلة ما فعله الإمام فسار نحوه ووقف صامتًا للحظات يتأمل الزراع ثم قال(أنت من اكتشفت الذرة؛ ألم يكن من حقك أكل كوز واحد) يطأطأ الإمام برأسه ويقول (هو حقي ولكن الواجب أكبر في نفسي من

حقي والخوف على المسلمين أعظم من شهوة ستنتهي في دقائق) ينكس زعيم القبيلة رأسه ويقول (ليتني مثلك) فيبتسم الإمام ويقول (أنت خير مني .. أنا عرفت الدين لأنني ولدت أعتنقه بالوراثة أتحدث بلغة القرآن وأحيا في بلاد الإسلام؛ أما أنت فولدت بلا دين وسط بلاد لا تعرفه لكن قلبك عرف الحق حين سمعت كلام الله رغم عدم إدراكك لمعاني كلماته حينها وتبعته حينما فسرت لك ورغم كونك سيد قومك فلم تتكبر أو تتعالَى أو تخشى من فقدان سلطتك وسلطانك بينهم) تترقرق دمعات الفرح في عيني زعيم القبيلة بعد سماعه لرأي الإمام فيه ثم يقومان ليشاركا الزراع زراعة الذرة فلمح الإمام قاصي يتسلل نحو كوخه كي لا يراه أحد ويطلب منه المساعدة في الزراعة؛ كانت كل تصرفات قاصي تؤكد للإمام أنه من المنافقين فيقول الإمام محدثًا نفسه (صحبة اليهود لا تأتي بخير أبدًا) وهنا تلمع فكرة في عيني الإمام؛ لماذا لا يستغلُّ علاقة قاصي بالساكنين خلف الأسوار المرتفعة ليأخذ منهم بعض سنابل القمح، راوغه

قاصي حينما طلب منه ذلك كثيرًا بل وأنكر معرفته إن كان هناك قمح أو خبز لديهم لكونه يريد استشارة كبير اليهود قبل الرد على طلب الإمام الذي تحمل خبث قاصي ومثل التغابي كما مثل قاصي البلاهة فكيف لا يعرف شخصًا أقام لسنوات بين قوم إن كان لديهم خبز وقمح أم لا.

فكر كبير اليهود طويلًا واستشار رفقاءه الذين رأو أن رفض طلب الإمام ربما كان بداية للعداء المعلن بينهم وهو أمر يريدون تفاديه لأطول فترة ممكنة وأن إعطاءه القمح سيكون معاونة كبيرة على إقامة مجتمع متحضر يزداد قوة يومًا بعد يوم؛ فخطرت لهم فكرة شيطانية وهي أن يحصدوا كل محصول القمح لديهم ويخفوا أثره وحبوبه ثم يقوموا بدعوة الإمام لزيارتهم للتشاور بالأمر حينئذ يرونه أرضهم التي خلت من القمح وموائدهم الخالية من الخبز ويدعون أن الجراد أكل كل القمح الذي كان لديهم منذ سنوات ؛ كان حلًّا عبقريًّا وخبيثًا لأبعد الحدود فبه لن يعطوه قمحًا ولن

يعلنوا له العداء (وماذا إن لجأ للساكنين خلف الأسوار المنخفضة طلبًا للقمح) سؤال وجهه ابن هام الأكبر لكبير اليهود الذي بدأ وكأن السؤال أحزنه وهو يقول (حينها سيكونون هم من يعلنون العداء عليه بالمنع أو سيصبحون الحمقى الذين أخطأوا حين منحوه قمحهم وفي الحالتين نحن المستفيدون إما بعداء الساكنين خلف الأسوار المنخفضة معه أو بلومهم في المستقبل على تعاطفهم معه حين نوقع بينهم) .

* * *

اصطحب الإمام أكبر أبنائه وزعيم القبيلة في زيارته للساكنين خلف الأسوار المرتفعة وكان وجود قاصي حتميًّا لمعرفته بالهولندية والعربية ليقوم بدور المترجم لحوارهم ؛

أصيب الإمام بالإحباط وخاصة عندما رأى الموائد الخالية من الخبز والحقول الخالية من القمح؛ لكنه كان متأكدًا من وجوده لديهم فهاموراس الراحل هو من أخبره بذلك فعلم تآمرهم عليه وإخفاءهم القمح بدلًا من إعلان عداوتهم بمنع القليل من سنابله عنه؛ لمح ابن الإمام بقايا سنبلة قمح خالية من الحبات غفلوا عن إزالتها وعندما همَّ بإخبار والده أشار له الوالد بالصمت والتعامي عن رؤيتها.

كان أصغر أبناء هام المتزوج من امرأة من الساكنين خلف الأسوار المنخفضة مخلصًا للدين وفور علمه برفض اليهود سنابل قمح توجه للإمام ليقترح عليه طلب السنابل من أهل زوجته خلف الأسوار المنخفصة لكن الإمام الذي فرح كثيرًا بإخلاص ابن هام الأصغر واختلافه عن أخيه المنافق طلب منه تأجيل الأمر خوفًا من أن يرفضوا طلبه فيقطع باب الحصول على القمح بالطرق الودية تمامًا (أسرق بعض السنابل) قالها ابن هام الأصغر فنكس الإمام

رأسه وصمت فتابع الشاب حديثه (بعض السنابل لن تضرهم لكنها تمنحنا الحياة) يمط الإمام شفتيه ويقول:(أتظن الله يعجز أن يمنحنا بعض السنبلات) يحتار الشاب من السؤال فيربت الإمام على كتفه ويقول (الله يعطّل الأسباب ليختبر إرادتنا وطاعتنا لأوامره؛ فإن وجد فينا قوة الإرادة وحسن اتباع أوامره فعل ما عطل من أسباب أو بدلها لنا؛ وإن وجد فينا الخذلان والعصيان عاقبنا بالحرمان والهوان) يهز ابن هام الأصغر رأسه ويبتسم فيقول له الإمام (لا تحزن إن الله معنا .. أتعرف متى قال الرسول صلوات الله عليه هذه الجملة؛ قالها لصاحبه وهما وحيدان يهربان مهاجران من وطنهما ومختبئان من مطارديهم المسلحين في غار ضيق مملوء بالأفاعي والعقارب ولا يفصلهم عنهم إلا بعض خيوط العنكبوت وعش طيور .. أتدري ماذا جرى بعدها؛ لقد أسس الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أمة الإسلام التي امتدت في مشارق الأرض ومغاربها بشهادة التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له إلى يومنا هذا

.. لا تجعل الأسباب عن خالقها تعميك؛ وتوكل عليه .. سيكفيك) أطال ابن هام الأصغر النظر للإمام دون أن يقول شيئًا؛ كانت نظراته مليئة بالاعجاب بهذا الرجل المشع يقينًا بالله؛ رغم كونه فقد الوطن والأهل ويعيش مع أسرته على أرض غريبة.

خيبة الأمل التي أصابت الإمام مما فعله الساكنين خلف الأسوار المرتفعة لم تدم للأبد فبعد أسابيع لمحت عيناه سنابل خضراء تظهر في أحد حقول المسلمين ففرك عيناه غير مصدق لرؤيتها؛ لقد علقت حبة قمح مغلفة من حقل اليهود في قدم واحد منهم وانتقلت إلى حقلهم وأنبتها الله؛ كانت سعادة الإمام بسنابل القمح أسطورية وخاصة عندما رآها قوية ممئلئة بالحبوب بشكل كبير؛ لكن الإمام لم يأمن غدر قاصي وخاصة أن الخبر انتشر بسرعة البرق في أرجاء قرية المسلمين فكلف رجال القبيلة بحراسة السنابل

ليل نهار حتى تحول لونها للون الذهبي فغرسوا حبوبها في الأرض وظلوا يكررون زراعة الحبوب كلما ظهرت السنابل الذهبية حتى أصبح لديهم محصول يكفي للزراعة والأكل والتخزين .

كم كان مذاق أول رغيف رائعًا في فم الإمام ليس لكونهِ اشتاق مذاق الخبز فحسب بل لمعنى تلك اللقيمات التي تمكن من الوصول إليها أخيرًا ؛ فعمله وسعيه للحصول على القمح لم يذهبا سدى رغم تقطع كل الأسباب حوله؛ والإمام رغم إيمانه الشديد بالله ورغم كل ما رأى من الأيات والبشارات في حياته كان يتوق إلى المزيد من الإشارات والبشارات التي تطمئنه وتؤكد له العون من السماء في مسيرته بهذه الأرض الغريبة؛ والآن فحسب يمكنه إطعام الجميع ؛ وبالتمكن من كل المزروعات بدأ التطور يدب في أرجاء القبيلة .. التي لم تعد بدائية .

جن جنون كبير اليهود عندما علم بما حدث ولكنه استشاط غضبًا عندما عرف أن الإمام بدأ في تحويل منازل المسلمين من الأكواخ إلى البيوت المبنية بالطوب اللبن كمنازلهم في الصعيد؛ لقد كان المسلمون يتطورون سريعًا وهنا حلَّت عليه الطامة الكبرى؛ لقد بدأ المسلمون التبادل التجاري مع الساكنين خلف الأسوار المنخفضة فتبادلوا الحبوب والمزروعات والملابس والحيوانات وكل شيئ بينهم ؛حاول كبير اليهود متع هذه التجارة بأي ثمن فالمصالح تعني التحالف لا محالة وهو خطر كبير من وجهة نظرة وبعد جلسة طويلة خوف فيها الساكنين خلف الأسوار المنخفضة من هذه التجارة التي ستزيد من قوة المسلمين وذكرهم بانتصارهم على اللادينيين رغم تفوقهم العددي حين ذاك؛ بدأ التردد يظهر على الساكنين خلف الأسوار المنخفضة وعندما ضيق عليهم الإمام الخناق صارحوه بما قاله كبير اليهود وهنا رأى الإمام وجوب التحرك الفوري للتخلص من

خطر الساكنين خلف الأسوار المرتفعة الذين سيشعلوا فتيل فتنة تلو الأخرى لكي يحاولوا إضعافهم.

حاصر الإمام والمسلمون الأسوار المرتفعة لفترة طويلة حتى رفع ساكنوها راية الاستسلام ورضخوا لمطالبه بالارتحال إلى أقصى أطراف الجزيرة والانعزال عن الجميع لكي يأمن المسلمون شرهم؛ ساد الوئام بين قرية المسلمين والساكنين خلف الأسوار المنخفضة؛ قام الإمام في سنوات عمره التالية بكتابة كل ما يحفظه من القرآن والسنة والعلوم الشرعية والفقهية على ألواح صنعت من جذوع النخيل ودرس طويلًا لأبنائه ولمن رغب من المسلمين كلَّ ما يعرفه وظلّ يوصي أبناءه بتناقل العلم من جيل لجيل؛ ورغم يقين الإمام من نفاق قاصي وأسرته إلا أنه لم يستطع طردهم بالظن دون قرينة وكما بقي قاصي وزوجته وأبناءه في قرية المسلمين بقي حقدهم الدفين بداخلهم؛ لكنهم لم يظهروه في تلك الأيام ولا في ذلك الجيل.

الفصل الثاني

أسوار من مخاوف

(خمسون عامًا في أرض غريبة ؛ لا أردى ما حلَّ بأهلي في بلادنا البعيدة ولا مصير ذريتي التي سأتركها في هذا المجهول المحاط بالأمواج من كل النواحي، ولكني أدرك أن مجيئي كان حتميًّا لتعرف تلك القلوب الطريق إلى الله) كان الإمام يحدث نفسه وهو ينظر للسماء كعادتهِ الأزلية؛ حَوَّله

المشيب إلى لوحة من الهدوء والسكينة واللون الأبيض؛ لكنه كان مطمئنًّا إلى حد كبير فأبناؤه وأحفاده والكثير من أهل القبيلة أصبحوا عالمين بالإسلام والآن يتولى أكبر أبنائه الخطابة والإمامة بالمسجد (إدخلْ إلى المنزل يا مؤمن .. فالجو شديد البرودة) قالتها وديعة التي تحولت بدورها إلى الجدة وديعة وصارت تمشي بعكاز خشبي وظهر شبه محني ووجه تكاد الشقوق تخفي ملامحه لكنه ظلَّ يراها تلك الشابة الجميلة النضرة وتلك الحبيبة فائقة الإخلاص (لماذا غادرتِ فراشك يا حبيبتي؟!) قالها الإمام وهو يحاول القيام من جلسته مستندًا على جدار المنزل فتضحك وديعة وتقول (لا أظن عكازي الضعيف سيحملنا معًا أيها الشيخ) يضحك الإمام وهو يسير متجها لوديعة ببطء ويقول (كم أنتِ عظيمة يا امرأتي؛ نصف قرن من الزمان معي في هذا المنفى، لم تشتكي يومًا من الغربة ولم تصرحي بالحنين لأهلك ووطنك الغائبين كي لا تصعبي الأمر عليَّ؛ اللهمَّ إني أشهدك أنها قد أحسنت عشرتي فأحسن إليها كما أحسنت لي ولأبنائنا)

أغرورقت عيني وديعة بالدموع وهي تقول (مما أشكو وأنا إلى جوار أعظم الرجال في زمني زوجة وأمًّا لأبنائه؛ لقد حملتَ رسالة الله على كاهليك وما قصرتَ فيها يومًا فكان إخلاصي في محبتك إخلاصًا في محبة الله) هنا تلتقط أسماعهما صوت خطوات تقترب منهما فيلتفتان لمصدر الخطوات ويريان الوجه الباسم لابنهما الأكبر الذي أصبح في الخمسينات من العمر وارتدى جلبابًا أبيضًا وعمامةً خضراء بعد أن أصبح خليفة أبيه في الدعوة والوعظ (حمدًا لله أنني لحقت بكما) قالها الابن مازحًا فانفجر الأبوان ضحكًا وقال الأب (يمكنك أن تلحق بنا حتى وإن امتطيت سلحفاة) ساعد الابن أبواه على الدخول للمنزل وأسكنهما الفراش ثم قبل رأس أمه التي خلدت للنوم بسرعة وسار ليجلس على طرف الفراش من ناحية أبيه طالبًا المشورة في أمر مهم؛ فالساكنون خلف الأسوار المنخفضة فتحوا أبوابهم لبعض اللادينيين الهاربين من قسوة وتوحش الأغلبية حيث سكنوا في سفح الجبل؛ وزعيم القبيلة الجديد يسأل الإمام المشورة

في هذا الأمر؛ اتسعت حدقتا الإمام المسن وقال بصوت واهن النبرات لكنه قوي الكلمات (ليس لنا أن نرغم الجيران على طرد ضيوف مسالمين؛ لكنهم .. سيفسدونهم).

* * *

(صدق الإمام جدي الأكبر الذي وطئت قدمه هذه الأرض منذ ما يزيد على قرنين من الزمان عندما قال أن اللادينيين سيفسدون الساكنين خلف الأسوار المنخفضة) قالها الشيخ عبدالله الشاب الثلاثيني خطيب المسجد المنحدر من سلالة الإمام مؤمن السوهاجي ؛ كان قوي

البنيان كأغلب أفراد عائلته بهيّ الطلعة معتدل الطول ولم تكن الابتسامة الصافية تفارق شفتيه إلا نادرًا (أنت منكفي على العلوم الشرعية ودراسة القرآن منذ أعوام؛ حتى أنك لا تجد وقتًا للزواج) قالتها أم عبدالله محاولة تغيير الموضوع ولفت أنظاره لجميلات القبيلة فالأرملة الخمسينية الجميلة تنتظر زواج ابنها الوحيد بفروغ الصبر (يا أماه لقد رحل أبي في ريعان شبابه وأصبحت مسئولية الدعوة والإمامة على كاهلي منذ الصغر فعمي شعيب شيخ مكفوف وطاعن في السن وكان يجب أن أتعلم منه كل ما أستطيع تعلمه؛ أكنت أترك دراسة دين الله وأفكر في نفسي) تزفر المرأة بحنق وتقول (وهل الزواج سيؤخرك عن التفقه في الدين؟) يبتسم عبدالله لأمه ببشاشة ويقول (كان .. أما الآن فيمكنني الزواج) وهنا تنفجر المرآة كعاصفة استوائية في وجه ابنها وهي تعدد له بنات القبيلة الصالحات للزواج والاتي يتمنين الارتباط بشاب مثله ولم يخلصه من يدها إلا صوت آذان العصر الذي مكنه من الخروج من المنزل متوجهًا للمسجد ؛

تجدد حنق الشيخ عبدالله من الساكنين خلف الأسوار المنخفضة عند خروجه من المنزل للصلاة فقد وقعت عيناه مرة أخرى على الأبراج التي ارتفعت بطول الأسوار المنخفضة والمزودة بحراس مزودين بأقواس وسهام؛ لقد نجح اللادينيين في إفساد الوئام بين الساكنين خلف الأسوار المنخفضة والمسلمين بمرور الأعوام .. وها هم شيدوا أبراج الحراسة على أسوارهم دون سابق تنويه ..

جلس الشيخ عبدالله بجوار عمه "شعيب" بعد انصراف المصلين من المسجد؛ ظل العم شعيب الذي تجاوز السبعين يستمع إلى مخاوف عبدالله ثم قال (أنا لا أرى سببًا لمخاوفك يا عبدالله) يقطب عبدالله حاجبيه متعجبًا ويقول (كيف هذا يا عمي؟) وهنا يقول شعيب بمرح طفولي (عمك رجل مكفوف .. كيف له أن يرى) ينفجر الاثنان ضاحكان فقد استطاع العم بحنكته أن يهدأ من حماسة ابن أخيه

الشاب وهنا يدخل المسجد "رشيد" وهو الابن الأوسط لزعيم القبيلة الراقد على فراش المرض منذ أسابيع؛ كان رشيد رجلًا في الأربعين من العمر على قدر عال من الأدب والتدين وكان أكثر أبناء أبيه برًّا به في شيخوخته ولم يكن أخوه الأكبر غير الشقيق "مغوار" مهتمًا إلا بسلطة أسرته وجمع الثروة فحرمه أبيه من الزعامة بعده وأوصى بها لأخيه الأصغر رشيد مما أوغل الحقد في صدر الأخ الأكبر الذي تربى مع أهل أمه المنحدرة من نسل هاموراس وحمل العديد من عاداتهم الغريبة التي كانت تشابه عادات جداتهم اليهوديات وجدودهم الذين ورثوا العلاقة السرية باليهود لهم؛ لكن وقوف العم شعيب والشيخ عبدالله إلى جانب رشيد جعل الصراع معه مستحيلًا فمثل مغوار الانصياع لرغبة أبيه حتى يرتب أمره واليوم فور أن لفظ زعيم القبيلة أنفاسه الأخيرة وقف أمام المنزل يدعو الناس لمبايعته على زعامة القبيلة خلفًا لأبيه ومخالفة لوصيته فاتجه رشيد إلى

المسجد مستنجدًا بالعم شعيب والشيخ عبدالله لإنقاذ الموقف قبل أن تندلع نيران الفتنة في القبيلة ..

كان رشيد على استعداد أن يترك زعامة القبيلة لأخيه ولا ينفذ وصية والده إن كان هذا ما يدرء الفتنة عن القبيلة وكان هذا هو السبب الذي جعل شعيب والشيخ عبدالله يتمسكان به كزعيم للقبيلة .. فتارك ملك مستحق له لدرء الفتنة أولى الناس به من وجهة نظرهم .

(أنا مغوار السيد بن السادة .. أكبر أبناء زعيمكم الراحل .. وأنا أولى الناس بالزعامة فبايعوني عليها الآن .. وإلا) هنا يقاطعه صوت العم شعيب (لا داع لكل هذا يا سيد مغوار فالكل يعرف قدرك) نزلت الجملة على مغوار كصاعقة من السماء رغم كونها كانت مدحًا له .. فقد كانت

خطته انتزاع مبايعة الناس أثناء غياب أئمة المسجد المؤديدين لأخيه بينما ظهرت كلمات شعيب لقلوب أهل القرية كطوق نجاة من دوامة الحيرة التي أوقعهم فيها مغوار بمطالبته بالزعامة ووعيده لهم رغم أن جسد والده لم يسكن بعد باطن الأرض (الواجب الآن الصلاة على أبيك الراحل وإقامة مراسم دفنه وبعد أن تتلقوا واجب العزاء فيه .. سينتهي أمر الزعامة بكل سهولة) لم يعد أمام مغوار إلا أن يكظم غيظه وخاصة بعد أن رفع العم شعيب يديه إلى السماء داعيًا للزعيم الراحل وبدأ الناس يؤمنون على دعواته ..

كان تصرف الشيخ عبدالله غاية في الحكمة والسياسة فمغوار بلا شك قد جمع مؤيديه وسط المجتمعين وأي نقاش كان سيتحول إلى عراك يحول السلطة في الجزيرة إلى أمر متنازع عليه ويمنحه الحق في المطالبة به؛ أما إرجاء

الأمر لما بعد العزاء فيعطي الفرصة إلى تذكير الناس بوصية الزعيم الراحل وتوضيح أسباب اختياره لرشيد خلفًا له مما يضعف موقف مغوار وحجته؛ وبالفعل كان الناس مجمعين على أحقية رشيد بالزعامة عند انتهاء فترة العزاء لكن مغوار لم يفتر اجتمع مع العم شعيب والشيخ عبدالله وأخيه رشيد بالمسجد على مرآي ومسمع من الناس بعد صلاة العشاء (أيها الناس .. إن أبي الراحل رحمة الله عليه أصابه الخرف في أيامه الأخيرة فأوصى بالزعامة لأخي رشيد بدلًا مني .. وأنا الآن لا أرضى لأبي أن تضيع سيرته العطرة بحكم اتخذه في أيام خرفه .. فبايعوني زعيمًا لكم وأدرؤوا الفتنة قبل أن تشتعل) قالها مغوار بأسلوب حماسي أثار الهمهمات بين الجالسين بالمسجد ولكن الشيخ عبدالله كان قد استعد لمثل هذا الموقف فقام واعتلى المنبر وأثنى على الله وصلى على رسوله ثم قال (أيها الناس .. الفتنة نائمة ملعون من أيقظها .. لهذا فأنا أرى أمرًا وأريدكم أن تعطوني رأيكم فيه .. سنقتدي بأمر الله (وأمرهم شورى بينهم) هذان هما

المطالبان بزعامة القبيلة خلفًا لوالدهم الراحل وأنتم أدرى بهم فليختر كلٌ منكم واحدًا منهم ومن ستختاره الأغلبية يحكم القبيلة) كان هذا ثان تصرف سياسي للشيخ عبدالله فالناس تعرف الاثنان خير المعرفة فكلاهما قد تجاوز الأربعين ومجتمع القبيلة الصغير يُعرف فيه كل شيئ عن أي شخص مهما حاول إخفاءه؛ لم يطل وقت الاقتراع وجاءت النتيجة لصالح رشيد باكتساح وعندما حاول مغوار الانسحاب في الزحام بعد إعلان النتيجة استوقفه نداء الشيخ عبدالله الذي حثه على مبايعة أخيه على مرأى من الناس لينهى النزاع للأبد .. أو هكذا ظن الشيخ عبدالله .

ظلت الغابة تفيض على جميع سكان الجزيرة بالفاكهة الاستوائية مختلفة الأنواع؛ ولكن مع ازدياد تعداد سكان الجزيرة أصبح قطف الفاكهة يتم بشكل منظم ويتم التوزيع على كل مجموعة وفقًا لعدد سكانها، كانت الأغلبية

للمسلمين والمسيحيين الذين زاد عددهم بانضمام اللادينيين لهم أما اليهود فقد كان عددهم أقل بكثير؛ في حين امتنع اللادينيون "سكان الغابة" عن حضور أي تقسيم وظلوا يأخذون كل ما يريدون من الغابة متجنبين الاختلاط بالجميع لعقود وعقود مخفين وجوههم بالأصباغ ومرتدين خرقًا بالكاد تستر عوراتهم؛ كان تقسيم الفاكهة يتم بحضور مندوب من كل مجموعة وكان مندوب المسلمين الدائم لسنوات هو الشيخ عبدالله لبشاشته ومحبة الجميع له أما اليهود فقد كان مندوبهم مختلفًا كل مرة ليضمنوا حرص المندوب على حصتهم وفجاجته في التعامل؛ بينما ظل مندوب المسيحيين "روبرت" ثابتًا لنصف قرن من الزمان لكونه من القلائل الذين تعلموا العربية وعلمها لأبنائه لتسهيل التواصل بين الجانبين حتى أصابه الكبر والإعياء فأصبح يبعث بولده "جون" كبديل عنه فنشأت علاقة صداقة بينه وبين الشيخ عبدالله لتقاربهما في السن؛ وفي أحد الأيام اصطحب جون شقيقته الصغرى سارة معه في

تقسيم الفاكهة؛ كانت شابة في منتصف العشرين من العمر ذات شعر ذهبي طويل انسدل على ظهرها ليمنحها جمالًا أخاذًا مع عينيها الزرقاوتين الواسعتين وبشرتها ناصعة البياض؛ كانت كفاتنة أسطورية في لوحة لرسام عالمي مما جعل الشيخ عبدالله يغض الطرف سريعًا كلما وقعت عيناه عليها كي لا يفتتن بها فلاحظت سارة ذلك كما استرعى انتباهها مشاركته العمال جمع الفواكه من فوق الأشجار المرتفعة رغم كونه سيد في قومه (أينهاك دينك أن تنظر إليَّ) قالتها سارة التي ظهرت فجأة إلى جوار الشيخ عبدالله كأنها انبعثت من العدم فارتبك الشاب وكاد ما يحمله من فاكهة يسقط أرضًا فضحكت سارة ضحكة رقيقة ساحرة جعلت عبدالله يلتفت لها لا إراديًا وتتلاقى أعينهم تجمد الشاب للحظات حتى انتبه على وكزة من جون تجعله يفيق من شروده ويجد سارة قد انصرفت مبتعدة عنه رغم أن عينيها لا تزالان مسلطتان عليه (لا تشغل بالك بأختي فهي شابة مشاكسة .. أتعرف أنها رفضت الزواج بكل من تقدم لها من

شبابنا) قالها جون فلمعت عينا عبدالله بفكرة الزواج بتلك الساحرة للحظة ثم سرعان ما تبددت الفكرة عندما تذكر موقعه كإمام للمسجد والوئام الذي فتر بين المسلمين والمسيحيين في الآونة الأخيرة (ترى لماذا ؟) قالها عبدالله محاولًا إخفاء ما ينتابه من أفكار عن جون الذي رد ببرود (إسألها) التفت عبدالله ليجد سارة تقف أمامه مباشرة وهي تناوله قطعة فاكهة قامت بغسلها وإزالة القشور عنها (أم تراك صائمًا) قالتها سارة فابتسم عبدالله وأُحْرِجَ أن يدير وجهه وعينيه عنها ثم تناول قطعة الفاكهة وشكرها واقتطع منها قطعة صغيرة ثم قسم بقيتها على من معه من عمال فازداد وميض الإعجاب في عيني الشابة به؛ فقلبها أخبرها أنها أخيرًا وجدت ضالتها على تلك الجزيرة ..

كان عبدالله يهوى الوقوف لساعات طويلة خلف خط الأشجار متأملًا المحيط الممتد إلى ما لانهاية وقت

غروب الشمس ؛ لكنه لم يتخيل أن يباغته صوتٌ أنثويٌّ ناعمٌ أثناء تأمله (لماذا لم تسألني؟) قالتها سارة والابتسامة تملأ وجهها عندما رأت الارتباك يتملك من عبدالله ولم تستطع منع نفسها من إطلاق ضحكتها الرقيقة المشعة بالحياة والحيوية والتي تمكنت من إخراج عبدالله من ارتباكه لتلقيه في موجة من الهيام بتلك الشابة رائعة الجمال وتنسيه كل الحواجز والأسوار التي تفصل بينهما للحظة ويقول :(أتقصدين لماذا لم أسألك لماذا رفضت من تقدموا لخطبتك كما أخبرني أخيك؟) تومیء سارة برأسها علامة الإعجاب والسعادة تتقافز في عينيها لكونه كان يتذكر فابتسم عبدالله وقال (ربما لأنني أعرف الإجابة؟) تقطب الشابة حاجبيها وتقول (هذا الغرور الذكوري لا يلائمك) فيقول الشاب بسرعة (وهذا التمرد الأنثوي لا يلائمك أيضًا) يتبادلان نظرة طويلة وتسود لحظة صمت ثم ينفجران ضحكًا فتقول سارة (أنا أراك منذ سنين تأتي إلى هنا لتشهد الغروب .. ترى ما السر؟) يسلط عبدالله عينيه على الشمس

التي أوشكت على الغوص في أمواج المحيط ويقول (أرى أن مستقبل سكان هذه الجزيرة يقبع خلف أمواج هذا المحيط .. فشئنا أم أبينا لابدّ لنا أن نعبرها نحو المجهول) تنكس الشابة رأسها وتشرد فلطالما راودتها الفكرة فازدياد عدد السكان كان يجعل التوسع خارج الجزيرة أمرًا حتميًّا (ولكن كيف وتلك الضخور تفصلنا عنه .. وليس لدينا سوى القليل من قوارب الصيد في البحيرة العذبة؟) يبتسم عبدالله معجبا بذكاء الشابة التي جعلها تدرك الموقف بوضوح لكنه يتذكر أن أخيها جون ربما يجيء كعادته ليشهد الغروب معه وأنه في خلوة غير شرعية في هذا المكان مع شابة جميلة وقبل أن ينطق ببنت شفة يجد سارة تقول (أعرف أنك متوتر وأنه ليس من عادتك مخاطبة النساء خلسة؛ أنا أتابعك في صمت منذ فترة طويلة؛ لم أكن أعرف لماذا في البداية لكنني الآن أعرف) تصمت سارة فيظهر التساؤل في عيني عبدالله للحظة لكنه سرعان ما يفهم مقصدها فتتسع حدقتها فهو لم يكن يحلم بأن تصارحه تلك الفاتنة بحبها .. ورغم أنه لم

يكن يعرف حقيقة مشاعره نحوها حين رآها إلا أن شلالًا من الحب تدفق بين ضلوعه فجأة .. ولكن ما مصير مثل هذا الحب في أرضٍ تفصل سكانها أسوار من مخاوف .

* * *

تعددت اللقاءات ورغم حرص الحبيبين تمكنت عيون الناس منهم في هذه الأرض الضيقة (الأخبار تنتشر كالنار في الهشيم يا شيخ عبدالله .. وقصتكما على كل ألسنة الجزيرة) قالها رشيد للشيخ عبدالله الجالس بجوار عمه شعيب في أحد الحقول وأمامهم شعلة نار يعد فوقها عدة أكواز من الذرة وإبريق شاي على طريقة أهل الصعيد التي

لم تفارق الإمام وذريته رغم مفارقتهم لأرضهم منذ قرنين من الزمان (ألهذا جئتنا في ظلمة الليل يا زعيم القبيلة؟) ينكس الزعيم رأسه ويقول (لا .. هناك أمر أكثر أهمية .. لقد أنشأ أخي مغوار مع بعض أحفاد هامواس مسجدًا خارج أسوارنا .. وهم هناك لا يتحدثون عن دين الله ولا تعاليم الإسلام) يقطب عبدالله حاجبيه ويكاد ينفجر غاضبًا فيهدئه عمه شعيب ويقول (بم يعظون الناس إذن؟) يزفر رشيد ويقول (هم يقولون بعض الأدعية والقليل من الوعظ لكن جم حديثهم عن جدهم هاموراس واستشهاده ومن تركوه في المعركة و) يقاطعه عبدالله غاضبًا ويقول (لابدّ أن نهدم دار الباطل تلك فوق رؤوسهم) يربت العم شعيب بيده على كتف الشاب عبدالله ويوجهه إلى صب أكواب الشاي ثم يرتشف رشفة بهدوء ويقول (بل لابد وأن نوضح للناس ضلالهم دون إساءة أو عداء .. وبهذا سيتجنبهم الجميع أو على الأقل الأغلبية فلا يجدون فائدة مما يفعلون فينصرفون عنهم أو يظلون بلا خطر على الناس بما يروجون من دعوة

فاسدة؛ ضلال البعض أمر حتمي المهم المحافظة على صلاح وهداية الأغلبية .. ومحاولة إنقاذ من نستطيع ممن تبعوهم بدعوة الضلال) يصمت الرجلان بعد أن استمعا إلى حكمة الكهل المكفوف الذي كانت بصيرته أحد من أبصارهما فيغير الموضوع ويقول مازحًا كعادته (إذن فقد فتنت بابنة الفرنجة يا ابن أخي) ينفجر الثلاثة ضاحكين .. كان الحل الوحيد بعد أن شاع الأمر أن يتقدم الإمام لخطبة الشابة؛ ورغم زيادة احتمالات الرفض فقد كان الأمر لا مفر منه خاصة مع الحب المتقد في قلب الحبيبن؛ لم ترحب أم عبدالله بالأمر في البداية لكنها انصاعت لرغبة ابنها واصطحبته مع عمه شعيب ورشيد زعيم القبيلة لمقابلة روبرت والد سارة الذي انصاع بدوره لرغبة الفتاة واستمع إلى مدح أخيها عن صديقه عبدالله فأعجب بالشاب قبل أن يراه؛ كانت الجلسة ودية إلى حد كبير حتى علت صوت طرقات حازمة على باب المنزل وكان الطارق كبير القساوسة الذي فاجأ الجميع بقوله(إن ديننا ينهانا عن زواج أحد رعية

الكنيسة برجل مسلم) انفجرت كلمات القس في وجه الجميع كلكمات ملاكم ثائر في الحلبة وسادت لحظة من الصمت فقال العم شعيب (أرنا أين كتب هذا في الإنجيل .. أنا أعرف أن لديكم نسخًا منه) تحمر وجنتا كبير القساوسة ولكنه يحاول اصطناع الهدوء ويخرج نسخة إنجيل يحملها بجيب بين طيات ثيابه ويفتحه وقبل أن يقرأ يقاطعه عبدالله قائلًا (وهل هذا النص الذي ستقرأه علينا نص حديث .. لقد تزوجت نساؤكم من قبل برجالنا وأنتم تزوجون نساءكم لليهود واللادينين و) يقاطعه هنا كبير القساوسة ويقول (اليهود أصحاب العهد القديم .. واللادينيون يعلنون انتسابهم للكنيسة قبل إتمام الزواج و) هنا يقاطعه العم شعيب ويقول (أتقصد أنه نص حديث ستقرأه علينا .. أم نص أغفله القساوسة من قبلك حين زوجوا نساءكم برجالنا) يلمح عبدالله النص الذي كان مكتوبًا بحبر أحدث من حبر الإنجيل في منطقة بهتت كلماتها من الإنجيل فيعرف أن الأمر مدبر ومرتب من قبل كبير القساوسة ربما باتفاق

مع كبير كهنة اليهود ويحاول كظم غيظة على مضض فيقول كبير القساوسة (كيف تطالبوننا بتزويج نساءنا لرجالكم وأنتم ترفضون تزويج نساءكم لرجالنا؟) هنا تتقد عينا عبدالله ويقول (لدينا نهي عن هذ بشريعتنا لكنه نهي بنفس درجة لون حبر قرآننا .. وربما تعدد الزوجات في شريعتنا يهيئ لنا ذلك فعدد الإناث يزيد عن عدد الذكور دومًا .. ربما كان ذلك حلًا لإناثكم بدلًا من أن يعانين العنوسة بسبب قلة الذكور يا سيدي كبير القساوسة) هنا يكاد الموقف يشتعل فينهي العم شعيب الجلسة مانحًا والد العروس الفرصة في التفكير والتشاور مع كبير القساوسة .. رغم أن الفرصة لم تكن ستغير من الأمر شيئًا كما كان يظهر جليًا ..

توقفت لقاءات الحبين فوضح ضغط كبير القساوسة على أهلها؛ ولم يكن استمرار اللقاءات ممكنًا في فترة انتظار الرد خاصة مع ترجيح كفة الرفض ..

عندما ظهر روبرت في جمع الفواكه التالي بدا رده واضحًا لعبدالله فهو حتى لم يبعث بولده جون وتحامل على نفسه رغم المرض وكبر السن كي لا يسمح بالحديث وفتح الموضوع؛ ظل روبرت صامتًا متفرسًا في الشاب عبدالله الذي بدا عليه أنه تجاهل الأمر وساعد العمال في جمع الفواكه كعادته بعد ترحيبه بروبرت ومندوب اليهود؛ كان روبرت في دوامة من الأفكار فالصراع بين التحريم الذي ساقه له كبير القساوسة والمنطق الذي يرجح قبول هذا الشاب الصالح زوجًا لابنته كان قاسيًا على رجل في سنه (أين أحمد؟) قالها أحد الفتيان بحثًا عن زميل لهم كان يشاركهم جمع الفواكه فبدأت عيون الجميع البحث عنه في كل الأرجاء دون جدوى ؛ حين حل الليل كان عدد كبير من سكان الجزيرة يمشطون الجزيرة حاملين القناديل والمشاعل وهنا ظهر جون الذي أتي ليربح والده من عناء البحث عن الفتى المختفي فاضطر الرجل المسن الانصياع لرغبة ولده (ترى أين ذهب الفتى؟) قالها جون مبتدئًا الحديث مع عبدالله الذي نكس رأسه

(العلم عند ربي؟) هنا تظهر بقايا نار تم إطفاؤها وخلفت بعض الرماد وقليل من الأدخنة المشبعة برائحة الشواء لقد وصلوا دون شك لمكان كان فيه "سكان الغابة" يظهر القلق على عبدالله ويتصاعد الشك في نفسه (أيمكن أن يكونوا اختطفوا الفتى يا جون؟) وقبل أن يجيب جون كانت سهام سكان الغابة الذين اعتلوا الأشجار والتي تمطر الجميع أبلغ رد على السؤال؛ فقد اختطف سكان الغابة الفتى لممارسة بعض الطقوس الشيطانية به؛ اضطر عبدالله ومن معه إلى التراجع مسرعين حاملين جرحاهم معهم في ظلمة الليل ناجين بأنفسهم من ذلك الكمين الليلي الذي كاد أن يودي بحياتهم جميعًا ؛ ولكن هذا كان بمثابة إعلان الحرب على الجزيرة الهادئة ..

(كيف لا نهاجمهم ونسترد الفتى؟) قالها عبدالله ثائرًا في اجتماع ضم كبير القساوسة وكبير اليهود ورشيد

زعيم القبيلة والعم شعيب وروبرت الذي قام بدور المترجم (ربما قتل بالفعل ولا وسيلة لإنقاذه) قالها كبير القساوسة فرد العم شعيب فور أن سمع الترجمة من روبرت (وإن حدث أنتركهم يختطفون أطفالنا ويرشقوننا بالسهام ونشاهد صامتين؛ اليوم اختطفوا طفلًا .. ما أدراكم أنهم غدًا لن يختطفوا أطفالًا أو ربما اختطفوك أنت يا كبير القساوسة) يمتقع وجه كبير القساوسة بعد أن خطرت الفكرة له فيقول كبير اليهود (إن مهاجمتهم لكم بهذا الشكل توضح قوة حربية وذكاء لا يستهان بهما ويجب أن نستعد جيدًا قبل الهجوم عليهم فهم يعرفون الغابة وسفح الجبل جيدًا ونحن نجهلهما) يفكر عبدالله قليلًا ثم يقول (لا مشكلة في تدريب القوات وإعداد الجيش جيدًا .. وإرسال العيون لمعرفة مكان تجهيزات العدو ولكن لا يمكن أن يطول الأمر وإلا وجدناهم يهاجموننا أولًا إن رأوا منا التخاذل بعد ما حدث منهم .. إبعث لنا رجالك لنقوم بتدريبهم مع رجالنا .. فسيكون الجيش واحدًا يأتمر بأمرة رشيد) يقطب كبير اليهود

حاجبيه ويقول والشرر يتطاير من عينيه (ولماذا يقود رشيد الجيش .. ألا ترى فينا أو في الساكنين خلف الأسوار المنخفضة قائدًا مناسبًا) يزفر العم شعيب حانقًا لكنه يداري حنقه ويقول (رشيد من السكان الأصليين وهم أدرى الناس بفنون القتال وبطبيعة الجزيرة) يشيح كبير اليهود بوجهه بعد أن يرى الموافقة والاقتناع برشيد قائدًا للجيش تظهر على وجه كبير القساوسة ..

كان جون من جرحى هجوم سكان الغابة فسهر عبدالله يطيب جراحه مع بقية الجرحى؛ ولم يستطع روبرت منع ابنته سارة من الاطمئنان على أخيها في المشفى الذي أقيم بأرض المسلمين فالتقت بعبدالله الذي حاول الهروب من نظراتها فوجد جون يقول (أنا أعرف أن كبير القساوسة زيف النص) تنتاب مشاعر وتعبيرات خرافية وجهي عبدالله وسارة فيظهر روبرت من اللامكان ويقول (إياك والهرطقة يا جون)

فيتحامل الشاب على نفسه ويجلس ويقول بصوت واهن (أنت تعرف مثلي أنهم يريدون قطع أي روابط بيننا وبينهم .. والزواج نسب ودم متصل .. وهذا آخر ما يريدونه) يصمت روبرت وينكس رأسه فيقول عبدالله (لا تحمل نفسك فوق طاقتها .. أنا لن أضعك في هذا المأزق يا سيدي .. لدينا معركة وشيكة يعلم الله من سيخرج منها حيًا ومن سيلقى حتفه) تترقق الدموع في عيني سارة وقبل أن تنبس ببنت شفة يقول جون (فلنرجيء الحديث في الموضوع لحين انتهاء الحرب .. هذا ما يعنيه عبدالله) وهنا تنفجر سارة غاضبة وتقول (لا هو يعني أنه سيتخلى عني كي لا يتحمل الرجال قساوة الصراع .. أليس كذلك يا أبي .. أنت لا تريد مواجهة كبير الكهنة وهو لا يريد إشعال الوضع بينهم وبيننا .. ولذا فالتخلي عن امرأة أسهل الحلول أليس كذلك أيها الرجال ؟) تخرج سارة من المشفى فيخيم الصمت على الثلاثة رجال للحظة حتى يقول روبرت (وماذا إذا كان كبير القساوسة محقًا .. أيمكن أن يؤكد أحد منكم أنه زيف النص) ينكس

الشابان رأسيهما ويقول عبدالله بصوت خافت (أنا أرى أيامًا متشحة بالسواد تطأ أرضنا .. إن نجانا الله من تلك الحرب فسوف أصنع طريقًا للمحيط .. فلن تتسع لنا تلك الجزيرة أكثر من ذلك) ..

وقفت سارة تبكي قرب باب المشفى فوجدت صوتًا أنثويًا يقول (له حق ولدي ألا يعجب بأي من شابات القبيلة .. لو كنت أعرف أن ذوقه رفيع هكذا ما كنت لمته أبدًا) كانت الكلمات لأم عبدالله التي راعتها دموع الشابة الجميلة فحاولت التسرية عنها بكلمات المدح التي نجحت في رسم الابتسامة على وجه الشابة التي ما زالت الدموع تبلله؛ فمدت المرأة يدها ومسحت دموع سارة ثم فتحت لها ذراعيها فتعانقا وكأنهن يعرفن بعضهن من الأزل

لم يبعث كبير اليهود إلا بعشرين رجلًا من معسكره في حين تعلل مغوار ورفقاؤه من أتباع هاموراس بأن ذكرى الجد الراحل قد حلت ويحظر عليهم القتال فيها؛ وبرغم

استياء عبدالله منهم ومن بدعهم وتخاذلهم إلا أنه كان يحاول التركيز على وضع خطة مع رشيد ويشحن همم المحاربين الخطب الحماسية الدينية التي تعلي قيمة الجهاد والشهادة في نفوسهم؛ فالجميع أناس مسالمون لم يشهدوا حربًا أو معركة من قبل ..

استغرق تدريب الجيش عدة أيام وصلت فيها الأخبار من عيون الاستطلاع أن سكان الغابة قد فخخوا كل الطرقات إليهم وتحصنوا بأسوار خشبية واعتلى الكثيرون منهم الأشجار العالية مموهين أنفسهم بألوان لحائها وحاملين السهام؛ كان وضعًا ميئوسًا منه للوهلة الأولى خاصة مع توحش سكان الغابة؛ لكن عبدالله ورشيد ظلا يفكران في خطة حتى اهتديا إليها بعد الاجتهاد في الدعاء والتفكير..

(إن التوغل في الغابة المليئة بالفخاخ والأكمنة هو انتحار لا محالة .. الحل الوحيد هو إجبار سكان الغابة على الخروج منها) قالها رشيد للجيش المتراص أمامه والذي كان يظن أنه سيقتحم الغابة بعد لحظات؛ كان المنجنيق البدائي أحد الأسلحة التي تعلمها المسلمون من الإمام الراحل ولكنهم لم يصنعوه إلا اليوم .. فأمطروا سكان الغابة بكتل نارية بها أعشاب نفاذة الرائحة تجبرهم على الخروج لمواجهتهم في ساحة الجزيرة هربًا من الاختناق .. كانت خطة ذكية جعلت كبير اليهود وكبير القساوسة يعيدان تقييمهما لرشيد وعبدالله كقواد محنكين .. وخاصة أنهما لم يحرقا الغابة ولم يدمرا مصدر الفواكة والأعشاب والحيوانات البرية بها بل كان المنجنيق يلقي كرات النار في سفح الجبل خلفها؛ امتلأت الجزيرة بالدخان الذي جعل جيش رشيد برتدي اللثام ليستطيع التنفس؛ مرت الدقائق بطيئة وكاد القلق ينتاب رشيد من نجاح الخطة في إخراج سكان الغابة منها؛ لكن محاربي الغابة بدأوا في الخروج فرادى أولًا ثم

جماعات وبدأت المعركة تدور في ساحة الجزيرة .. كان روبرت وجون يعتلون الأبراج حاملين الأسهم في حين كانت سارة بجوار أم عبدالله في مؤخرة الجيش لمداواة الجرحى وظل بجوارهم العم شعيب يصلي ويطيل السجود داعيًا الله النصر فماهو إلا شيخ كبير مكفوف لا يملك إلا الدعاء ويا له من سلاح قادر.

أظهر رشيد وعبدالله أسمى آيات التفاني والشجاعة في المعركة التي قضت على أغلب سكان الغابة ولم يبق منهم إلا عدد قليل وقعوا في الأسر بعد قتال مضنى ..

* * *

كان تحرير الفتى أحمد حدثًا مفرحًا بعد أن ظن الجميع موته .. ورغم أنه كان قد عانى أقسى أنواع التعذيب أثناء ممارسة سكان الغابة لطقوسهم الشيطانية وفقد الكثير من دمائه إلا أنه كان بشوشًا ينشر البهجة في نفوس الجميع ويتندر بقوله (لقد حرمتموني أجر الشهادة .. سامحكم الله) وما إلا أيام قليلة وعاد لدروس تحفيظ القرآن مع العم شعيب مستندًا على عكازين خشبيين (من أين أتى هذا الفتى الصغير بهذه الروح المرحة .. أحقًا كان يتمنى الموت؟) قالها روبرت الجالس بجوار كبير القساوسة وعبدالله وهما ينهيان فك أسر سكان الغابة؛ فقد كان كل أسير يختار أي معسكر سيعيش فيه بعد فك أسره .. في حين غاب كبير اليهود فلم يكن لديهم رغبة في ضم أشخاص جدد إلى أسوارهم المرتفعة رغم قلتهم العددية .. خاصة إن كانوا من سكان الغابة الهمجيين الذين يحتاجون ترويضًا كالوحوش في وجهة نظره.

(القرآن يعلمنا حب الحياة) قالها عبدالله فنظر له كبير القساوسة وروبرت بتعجب فيكمل قائلًا (حب الحياة الدنيا والآخرة .. وحب الآخرة أكثر) انتهى أمر الأسرى الذين اختار بعضًا منهم الإسلام والبعض الآخر المسيحية في حين اختار معظمهم أن يظل بلا دين ويعيش مع أصحاب الأسوار المنخفضة التي تعلوها أبراج الحراسة ...

(مسرحية؟!) قالها عبدالله وكل مظاهر الدهشة تجتمع فيه فلم يكن يتوقع أن يقيم أتباع هاموراس مسرحية لتخليد ذكراه خاصة وأن المسرح فن راج في معسكر الساكنين خلف الأسوار المنخفضة الذين أقاموا بعض مسرحيات شكسبير ولم يكن للقبيلة معرفة به من قبل؛ الملفت للنظر أن رشيد الذي نقل له الخبر لم يكن مندهشًا أو متأثرًا ولو بقدر قليل (ماسر هدوءك المفرط يا رشيد؟) قالها عبدالله لرشيد الذي جلس بجوار العم شعيب

يصطادان السمك بصنانير بدائية على شاطيء البحيرة (ألن تشاركنا الصيد؟) قالها العم شعيب لعبدالله فأمسك بصنارة وجلس بجوارهما يضع فيها الطعم (إذن فقد أخبرت العم شعيب قبلي فهدأك رأيه كالعادة) يبتسم الثلاثة ولكن سرعان ما غمر الترقب والتشويق المشهد حينما علقت أحد الأسماك الكبيرة في صنارة عبدالله الذي هلل فرحًا ووقف متحمسًا وقال (أرأيتم رغم كوني بدأت متأخرًا إلا إنني أول من نجح في اصطياد السمك) ينفجر العم شعيب ورشيد ضاحكين ويشير الأخير لقِدر نحاسي امتلأ بالأسماك الضخمة التي قاموا بصيدها قبل مجيئه فيخجل عبدالله وخاصة عندما يجد السمكة التي اصطادها أصغر من أصغر ما اصطاداه قبله فيجلس صامتًا ليسود الصمت لحظة حتى ينهيه العم شعيب بقوله (إن قاموا بعمل مسرحية فهذا أدعى لنا أن نستخدم نفس السلاح فإن استخدموه لباطلهم استخدمناه للحق؛ إن الفن والإبداع من الطرق غير المباشرة للوعظ والتعليم وهي الطريقة الأقوى والأكبر تأثيرًا على

النفس فاستخلاص الإنسان للحكمة والموعظة من عمل فني أو أدبي تجعله يشعر بالزهو لأنه يظن أن فطنته هي ما أوصلت المعنى إليه) يكاد عبدالله يصيح غاضبًا لكنه يكظم غيظه ويواصل الصيد ثم يسأل (ومن سيكتب المسرحيات؟) فيجيب العم شعيب (أنا سأقوم بذلك وربما استعنت بك لتساعدني .. ألم يكن هوميروس مؤلف الإلياذة والأوديسا مكفوفًا مثلي ؟!) يقف عبدالله ويضع الصنارة جانبًا ويقول وهو يلم حاجياته مهمًا بالانصراف (اكتب ما شئت من المسرحيات يا عمي .. أما أنا فلي شأن آخر) ينصرف عبدالله فجأة كما جاء فجأة فيحل الصمت على العم شعيب ورشيد للحظة حتى يقول الأخير (لقد انصرف) فيومىء شعيب برأسه ويقول (أعرف .. وأعرف شأنه الآخر الذي سيشغله عنا) تغمر تعبيرات الترقب وجه رشيد وتزداد عندما لا يكمل جملته فيقول بفروغ صبر (قل يا رجل بالله عليك .. ما شأنه الآخر؟) هنا تهتز صنارة العم شعيب معلنة عن سمكة

جديدة وقعت في براثنها فينشغلان في الإمساك بها وتمر الليلة دون أن ينطق شعيب ببنت شفة أخرى عن عبدالله .

لم يخبر عبدالله أحدًا بمسعاه لكن عمه كان يشعر أنه سيبدأ في تمهيد الطريق نحو المحيط؛ تلك الفكرة التي راودته منذ طفولته وأصبحت ملحة الآن في ذهنه بعد أن حرمت عليه حبيبته فضافت عليه الجزيرة التي تفرق سكانها أسوار من المخاوف الوهمية؛ لم يدع الشاب أحدًا لمساعدته لكن الفتى أحمد تطوع عندما رآه يقطع الأشجار صانعًا منها ممرًا خشبيًا فوق الصخور المدببة وواضعًا تحتها الصخور والرمال لتدعيمه (هو عمل شاق لا شك؛ ربما استغرق أسابيع وربما شهورًا يا شيخ عبدالله) قالها الفتى أحمد وهو يناول عبدالله إناء الرمل ليصبه فوق الصخور المدببة ثم يساعده في تثبيت الأخشاب فوقه (لدينا كل الوقت فهو سلعة متاحة للجميع) كانت الصخور تمتد لعدة كيلومترات

ومنحها المحيط الشعور بالامتداد إلى مالانهاية (ولكنك تحتاج إلى قوارب أو سفن بعد الانتهاء من الممر.. وذلك يحتاج المزيد من الوقت؟) قالها صوت جون الذي ظهر فجأة خلفهما وبدأ في تشمير ذراعيه استعدادًا للمشاركة في العمل فابتسم عبدالله وقال (هكذا سيتقلص الوقت كثيرًا) ..

لم يمر أسبوع إلا وكان العديد من أهل الجزيرة يشاركون في بناء الممر نحو المحيط .. والعمل الذي ظن عبدالله أنه سبستغرق شهورًا أو سنين استغرق أسابيع قليلة .. لم يشارك أي من الساكنين خلف الأسوار المرتفعة رغم ترقبهم الشديد للانفتاح على المحيط فأمانيهم كانت أن ينتهي كونهم الأقلية بعد الانفتاح على العالم ..

بعد انتهاء الممر شرعوا في بناء قوارب الصيد المزودة بأشرعة ومجاديف التي رغم كونها بدائية كانت تناسب أمواج المحيط الذي بدأ أخيرًا يدر عليهم خيراته من الأسماك الضخمة الوفيرة على عكس أسماك البحيرة .. لكن المحيط

لم يكن مجرد أداة للمزيد من الطعام فحسب؛ لقد كان يحمل في طياته لهم المزيد والمزيد من الأشياء التي لم تخطر على بال أحد ..

أصبح عبدالله وجون صيادين ماهرين؛ كان الشغف بالمغامرة هو محركهما الأكبر نحو ذلك؛ وفي أحد الأيام حين عودتهما من رحلة الصيد وجدا سارة تنتظر جون على رصيف الممر الخشبي الذي كان بمثابة ميناء الجزيرة الصغير ؛ كان القلق يكتنف الفتاة فمرض والدها اشتد وظل يردد في الحمى أنه يريد رؤية ابنه جون؛ فاصطحب عبدالله صديقه لزيارة والده والاطمئنان عليه؛ كان الرجل يهلوس من أثر الحمى وكانت رؤية عبدالله أمام عينيه دافعًا له أن يقول ما يجول في نفسه تجاهه بعدما ظنه أحد الخيالات التي يراها (كم أكرهك وأحبك أيها الشاب .. أنت لي تشكيك في كل ما آمنت به وصراع مؤلم كأشواج تاج المسيح ؛ لكن

وجهك الباسم البشوش يشعرني دومًا بالطمأنينة وخلقك النبيل يجعلني أحترمك أشد الاحترام .. لست أدري أأتمنى أن تختفي من حياتنا للأبد أم أرجو أن تصبح أنت محور حياتنا .. ولكن أي حياة بقت لي .. لم تبق لي على هذا الكوكب إلا لحظات قليلة) خرج عبدالله مسرعًا من حجرة الرجل المحموم فتبعته سارة فأبطأ الخطى حتى تلحق به ..

سارا سويًا تحت سماء مرصعة بالنجوم في ليلة أضاءها هلال صغير (أتراك تخلصت من حبك لي وانتهى الأمر؟) قالتها سارة ثم أشاحت بوجهها الناحية الأخرى فنكس عبدالله رأسه وقال (لا أنكر أن حبك كان عبئًا على كاهلي مثلما كان جنة لروحي .. إن في نفسي صراع كصراع أبيك تجاهي .. فأنا إمام المسلمين وكان من الأوجب أن أتبع وصية رسولي وأتزوج بذات دين لكن قلبي اختارك أنت من دين آخر دونًا عن نساء هذه الأرض .. وليت الطريق إليك

كان ممهدًا بل كان مليئًا بأشواك لم أستطع تجاوزها والتغلب عليها رغم تغلبي على الأشواك التي فصلتنا عن المحيط لقرون .. إن حبك الذي تدفق كنبع من الحياة بين ضلوعي كان هو سبب ضيقي بهذه الجزيرة ومن عليها ورغبتي في الخروج منها بعد أن حرمت منه .. أترين ما أعانيه من صراع يا حبيبتي) أدار عبدالله وجه سارة الذي أشاحت به عنه فوجده مغرورقًا بدموعها فما كان منه إلا أن انسابت دموعه مغرقة وجنتيه فقالت وهي تمسح دمعاته بطرف كمها (لا تبكِ فرجل مثلك استطاع شق الصخور وفتح الطريق نحو المحيط يقف شامخًا مهما أوجعته الآلام .. اهرب بنا من هذه الأرض إن استطعت .. أو حاول أن تنس ابنة الفرنجة التي أحبتك واتخذ لك زوجة تريح بها قلب أمك التي أفنت عمرها من أجلك .. واطمئن فأمر حبي لك الذي شاع بين الجميع سيكون وقاية لي من شباب عشيرتي فلن يخطو أحد منهم نحو من أحبت مسلمًا) يزفر عبدالله زفرة طويلة تملئوها الحسرة ثم يقول (وهل تظنينني قاسيًا

وظالمًا لهذه الدرجة .. أأتركك تعانين في حر الوحدة والشوق وينعم قلبي في نسيم سواكِ .. واللهِ إني لأطوف المحيط بحثًا عن مهرب لنا فلا أجد إلا الموج الممتد إلى ما لانهاية يحاوطني من كل اتجاه .. كم دعوت الله أن أجد أرضًا أخرى فلم أجد إلا الماء .. صدقيني يا حبيبتي أنا على عهد حبك وإن أظهرت النكران والتجاهل فهم كل ما يجعلني أستطع الصمود أمام نيران الشوق التي تتأجج بقلبي ليل نهار) أنهى نداء جون لشقيقته لقاء العاشقين الذي غمرته دموعهما .. لكن الهلال الصغير ظل يبك لساعات طويلة في تلك الليلة .

حضر الكثيرون العرض المسرحي في تلك الليلة .. فهو حدث مشوق؛ ألف العم شعيب مسرحية تروي قصة مجيء الإمام مؤمن السوهاجي إلى الجزيرة وما قابله من صعوبات في المحيط حتي وصلوها؛ ورحلته في دعوة أهلها للإسلام؛ كانت مسرحية درامية تبرز فيها بعض اللمحات الكوميدية التي وضعها العم شعيب للتسرية على المشاهدين .. وفي

نهاية العرض رآي عبدالله فطنة عمه فقد بعث العرض المسرحي روحًا جميلة في نفوس مشاهديه من المسلمين وحتى غير المسلمين فقد تأثروا بالقيم النبيلة التي بثها العرض من تسامح ومحبة للبشرية جمعاء؛ لقد كانت المسرحية تصحيحًا للعديد من المفاهيم المغلوطة وما أخطرها على نفوس البشر..

(كيف حال أبيك اليوم؟) قالها عبدالله لجون وهما يبحران بقاربهما الشراعي مبتعدين عن الجزيرة بقدر كاف ليلقيا شباكهما في قلب المحيط (زالت أعراض الحمى قليلًا بعد أن أعد له عمك شعيب مستحضرًا عشبيًا .. أتعرف إنني أظن هذا الرجل يصطنع العمى .. كيف لرجل مكفوف أن يفعل كل ما يفعله .. إنه يعرف في التداوي والعلوم الدينية ويساعدكم في الزراعة ويهوى صيد الأسماك أيؤلف المسرحيات حقًا ؟!) يبتسم عبدالله بعد أن عدد جون له مواهب وقدرات عمه المكفوف الذي تجاوز السبعين ويقول

(أتعرف أنه رجاني مرة أن يصطحبنا للصيد في المحيط) ينفجر الشابان ضاحكين وبعد أن تهدأ ضحكاتهما يتأمل جون في وجه صديقه ويقول (ليتني أستطيع أن أزوجك اختي يا صديقي .. فلو جبت العالم ما وجدت لها خيرًا منك) ينكس عبدالله رأسه ثم يقول مازحًا ليخفف وطأة الحديث (وما أدراك بالعالم أيها الجاهل الذي لا يعرف إلا جزيرتنا المنفية عنه في مجهول المحيط) وقبل أن يقول جون جملة ساخرة كجملة عبدالله يسمعان صوتًا لم يسمعا مثله من قبل فيلتفتان لمصدره ليريا ما لم تقع عليه أعينهم أبدًا .. إنه يخت ضخم لبعثة تابعة لقناة علمية تجول المحيط الهندي متجهة بعد ذلك لاستراليا؛ أخيرًا وجدوا العالم الذي انتزعوا منه منذ مئات السنين .. أو فلنقل أخيرًا وجدهم العالم ..

* * *

لم يكن يتوقع علماء الحيوانات البرية أن يكتشفوا هذا الاكتشاف الثمين .. أناس من جنسيات متعددة مفقودون على جزيرة مجهولة في قلب المحيط الهندي لمئات السنين ..

كانوا ثلاثة علماء "سيرموند" السويدي الجنسية والمؤمن بإله واحد هو العلم؛ "تايلر" الإنجليزي المسيحي الملتزم ؛ "إلياس" الإنجليزي المنحدر من أصول هندية والذي ورث الإسلام عن والديه .

(من الغريب أن أحدكما يتحدث الانجليزية والعربية والثاني العربية أنا متشوق لرؤية هذه الجزيرة لابد وأنها فريدة من نوعها) قالها تايلر وهو يصطحب عبدالله وجون في جولة فوق يختهما البحثي مفجرًا الدهشة في نفسيهما مما يرونه من علامات التطور (كيف تطور العالم بهذه السرعة؟) قالها عبدالله فترجمها جون لتايلر الذي قال (أنت لم ترشيئًا بعد) وهنا تقع عينا عبدالله على كتاب موضوع

على أحد الأرفف بغرفة "إلياس" العالم الهندي كانت هناك جملة بالعربية خطت فوق غلافه جعلته يكاد يطير وهو متجه نحوه فالجملة كانت "القرآن الكريم" ..

ظل عبدالله يتفقد الكتاب بسعادة غامرة ويقارن بين ذاكرته وما خط فيه فتزداد سعادته عن ذي قبل؛ لم يكن الشاب يصدق دقة النقل الحرفي للآيات من جيل لجيل رغم الاعتماد على طرق بدائية في النسخ وهنا خطرت لجون فكرة جعلته يقول بسرعة (ألديكم إنجيل؟) لم يكن جون يحفظ الإنجيل كحال عبدالله مع القرآن لكن همه كان التأكد من آية تحريم زواج المسيحيات بالمسلمين التي حرم بها كبير القساوسة زواج عبدالله من أخته سارة .

وصل اليخت إلى الميناء الخشبي وكأنه كائن خرافي خارج من كتب الأساطير بعيون أهل الجزيرة؛ لكن العلماء كانوا أكثر دهشة مما وجدوه من حضارة شبه متقدمة على أرضها؛ فأهلها يعرفون الزراعة والصناعة ويرتدون الملابس

ويقرأون ويصلون ويستأنسون الغزلان والجاموس الوحشي والخيول ويبنون البيوت والأسوار ويمتلكون أسلحة ولديهم مسرح؛ كان مجتمعًا ينتمي لبدايات القرن التاسع عشر وليس مجتمعًا بدائيًا لبعض الهمجيين كما تصوروا .. لقد حافظوا على التوازن الطبيعي في قراهم الصغيرة فحقولهم لا تقضي عليها الفئران بسبب البوم والصقور والقطط (إنهم أناس حافظوا على الطبيعة في كل شيء حتى في أنفسهم) قالها العالم سيرموند وهو يبدأ تصوير فيلم تسجيلي عن ذلك المكان الفريد ..

بدأ كل يسأل العلماء عما يهمه فوجدوا أنفسهم بعد سويعات قليلة في استجواب كبير بدلًا من توجيه الأسئلة لسكان الجزيرة؛ سألهم العم شعيب عن حال المسلمين والعرب وجاءته الإجابة بما لا يسره ولا يتوقعه؛ فهم الآن في أدنى درجات سلم الحياة والعلم؛ لا كرامة لهم ولا هيبة؛

تستباح بلادهم ويقتل أهلها ولا تتحرك شعرة في رأس حكامهم؛ يقلدون الغرب في الملبس والمأكل وكأنهم مجرد عرائس خيط في أيديهم .. اكتفى العم شعيب بما سمعه واتخذ جانبًا يبكي ويدعو الله في نفسه .. أن ينقذهم مما آلوا إليه من ذلة بعد عزة ..

أما مغوار وأتباعه فقد هالهم الأمر فالمجهول بالنسبة لهم هو العدو لكن مباركة رشيد والساكنين خلف الأسوار المرتفعة والمنخفضة للعلماء وجولتهم في الجزيرة أخرستهم فانعزلوا في مسجدهم المزعوم ..

أما كبير اليهود فقد انشطرت مشاعره بين السعادة والدهشة فها هم اليهود قد اجتمعوا في وطنهم القومي كما كانوا يحلمون لكنه ظل مندهشًا من مكان هذا الوطن فقد كان المخطط هو جنوب إفريقيا كما تناقل من أجداده .. ترى ما الذي غير تلك الخطة إلى المدعوة فلسطين ..

بذل كبير القساوسة جهدًا كبيرًا في إقناع روبرت وجون أن هناك أكثر من نسخة للإنجيل كمتى ويوحنا ومرقس ولوقا وأن نصه ليس موحدًا كنص القرآن وأن عدم وجود نص التحريم في الإنجيل الذي أتى به جون من العلماء لا ينفي وجوده في إنجيل آخر من الأناجيل الموجودة (ولماذا لا نتبع نسخة الإنجيل التي مع العلماء ؟) قالها جون فاحمر وجه كبير القساوسة وقال منفعلًا (وما أدراك أنت بالدين .. أتريدني أن أغير الدين لتزوج أختك بإمام من أئمة المسلمين) يصمت جون ثم يقف ويغادر ملقيًا جملة اعتذار مقتضبة واتجه لوالده طريح الفراش ليفاجأ أن المضاد الحيوي الذي منحه له العلماء قد جعل صحته تتحسن بشكل كبير وما هي إلا أيام قليلة واستعاد روبرت صحته ..

(ماذا بك يا جد شعيب ؟ .. لقد اعتزلت الجميع منذ أيام على غير عادتك) قالها الفتى أحمد لشعيب الجالس

مسندًا رأسه على حائط منزله؛ كان الرجل مغمض العينين بطبيعته فلم يكن أحد ليعرف أمستيقظ هو أم نائم لكنه كان في الحقيقة شارد الفكر حزين على أمة الإسلام التي وردته عنها أفظع الأخبار من وجهة نظره (ما كنت أظن الحال سيصبح أسود من ظلمة العمى) قالها شعيب فربت الفتى على كتفه وقال (ألم تقل لي أن أشد اللحظات ظلامًا هي تلك التي تسبق الشروق ونور الشمس يا معلمي؟) كانت تلقائية الفتى وآماله الكبيرة تشع من صوته وكلماته مما جعل الشيخ يعتدل في جلسته ويقول (بلى يا أحمد .. إن أشد اللحظات ظلامًا هي تلك التي تسبق الشروق .. لكني حزينٌ على أمة كانت في مقدمة الأمم دينًا وخلقًا وعلمًا وقوة ثم أصبحت كالبيت الخرب .. إنه الاحتلال يا ولدي .. لقد احتلونا لقرون طويلة والآن نتخبط في ظلمات رسخوها بنا أثناء احتلالهم لنا) ..

انتهى العلماء من فيلمهم التسجيلي عن الجزيرة ولم يبق لهم إلا الدوران حولها باليخت لتصوير جوانبها فاصطحبهم عبدالله وجون ورشيد في جولة التصوير ورأوا لأول مرة الجانب الآخر من الجزيرة كان مختلفًا تمامًا عن تصورهم فيه أحجار ضخمة تتجاوز مساحتها أضعاف ما كان أمام الجزيرة واستطاعوا تمهيده وأطلت فوهة الجبل البركاني المائلة لتعطي المشهد طابعًا سرياليًا ؛ لكن ما استرعى انتباه العلماء كان طبيعة الصخور التي يبدو أنها تكونت من انفجارات الجبل البركاني حين كان نشطًا فأخذوا عينات منها وعادوا للجزيرة بعدما أنهوا تصوير جوانبها

(أنتم لا تملكون شيئا يهم العالم يا صديقي .. ربما جاءتكم بعض الرحلات السياحية أو العلمية لتصويركم .. قل لي لماذا اهتممت فجاة بتعلم اللغة الانجليزية؟) قالها العالم إلياس ردًا على عبدالله عندما سأله عما إذا كان

العالم سيهتم بهم أو لا وهما في مبيت منحه المسلمون للعلماء كان يجمعان حاجيات إلياس استعدادًا لرحيل العلماء؛ جعل رد إلياس الصادم عبدالله يصمت للحظة ثم يقول (إذن فلقاؤنا بكم ما كان إلا لتخبروننا بتخلف العرب والمسلمين واحتلال بيت المقدس من اليهود .. ذلك هو سبب تعلمي اللغة الانجليزية للعلم .. فيجب أن نفهم هؤلاء المسيطرين على موازين القوى في العالم إن كنا نريد أن نلحق بهم أو نسبقهم) نكس إلياس رأسه وقال (صدقني إن حالكم البدائي أفضل بكثير من المدن المتطورة حول العالم .. فهنا لا عنصرية ولا طبقية ولا طغيان للقوي على الضعيف ولا حروب ولا قنابل ذرية ولا قوى عظمى) يقهقه عبدالله ضاحكًا فيندهش إلياس ويقول (ما سر ضحكاتك؟) يحاول عبدالله أن ينهي الضحك ويقول والضحكات مازالت تتخلل صوته (إن وصفك لحياتنا جعلني أشعر أننا نعيش في الجنة وأنتم في الجحيم يا صديقي) يهز إلياس رأسه ويتفرس في ملامح عبدالله بجدية تجعل ملامحه تنقلب من الضحك

إلى الخوف بعدما أيقن أن إلياس يعني ما يقول فمن وجهة نظره أن العالم الآن أصبح عبثيًا فوضويًا رغم ادعائه التعقل والنظام؛ انتهى عبدالله من إغلاق آخر حقائب إلياس فوضعها جانبًا ثم ربت على كتفه وقال (إذا كان العلم المتطور قد أوصلكم لهذه الحالة .. فهنا الجهل يجعلنا نحيا بين أسوار من مخاوف) ..

غادر العلماء بعد أن منحوا سكان الجزيرة وعدًا كاذبًا بالعودة لزيارتهم ؛ لكنهم رغم كذبهم في ذلك الوعد .. عادوا لتلك الأرض .. وليتهم عادوا وحدهم ..

الفصل الثالث

مركز الأرض الجديد

(كيف تمكنت من إجادة الإنجليزية في تلك الفترة القصيرة يا رجل .. لقد تعلمت أنا العربية في سنوات ؟!)

قالها جون لعبدالله مندهشًا من سرعة تعلمه للانجليزية وإتقانه لها لدرجة أنه أدار معه حوار بها لعدة دقائق قبل أن يتنبه جون لهذا (أنت معلم جيد .. وإلياس منحني كتابًا كان

معه .. كما أني تعلمت القليل منها في صغري لكنني لم أكن أحب أن أتحدث بها إلا بعد اتقانها) قالها عبدالله وهو يجلس إلى جواره في قارب الصيد استعدادًا للانطلاق لرحلة صيد جديدة؛ ولكن بدون مقدمات تبدأ الأصوات في الارتفاع ويهتز سطح الماء معلنا قدوم سفنًا عملاقة سرعان ما ملأت المحيط أمامهم؛ عصف التوتر والقلق بعبدالله وجون ولكن ظهور يخت العلماء الذي اتجه نحو الرصيف الخشبي طمأنهم بعض الشيئ؛ أطل إلياس برأسه محييًا الشابين فبادلاه التحية بترحاب وظهر من خلفه تايلر وسيرموند وعلى وجوههم ابتسامة صفراء باهتة أعادت القلق والتوتر إلى نفسي الشابين وألغيت رحلة الصيد في هذا اليوم ..

(في البداية انتهينا من مونتاج الفيلم التسجيلي ووافقت القناة على عرضه وحقق صدى واسعًا بين المشاهدين) قالها تايلر بحماسة لجماعة من قواد الجزيرة

ضمت عبدالله وجون وشعيب وروبرت ورشيد وكبير القساوسة وكبير اليهود جلسوا في حديقة منزل كبير القساوسة مع العلماء الثلاثة يرحبون بهم ويستفهمون سبب وجود الأسطول الضخم على شطآن جزيرتهم الهادئة وهنا قال شعيب (وهل عرض الفيلم سبب وجود هذا الأسطول) يبتسم تايلر ويقول (بالطبع لا .. إن أكبر صدى حققه الفيلم هو خطابات من الأزهر والفاتيكان والكنيسة المصرية تطلب منا مساعدة مندوبيهم في زيارتكم والاطمئنان عليكم .. فأنتم مثال على تعايش الأديان سويًا في سلام) يهز الجميع رؤوسهم والترقب يشع من العيون لمعرفة سبب وجود هذا الأسطول الضخم الذي حجب رؤية المحيط من كثافة سفنه فيمط سيرموند شفتيه ويقول ببرود (السر هو العينات التي أخذناها من الصخور المترامية خلف الجزيرة لقد اكتشفنا) هنا يقاطعه صوت يقول بالعربية (إن جزيرتكم تحتوى على أكبر منجم لليورانيوم الخام على سطح كوكب الأرض .. أعرفكم بنفسي جنرال مطلع من الجيش الماليزي) يلتفت

الجميع لمصدر الصوت ليفاجئوا بالجنرال الماليزي متوسط الطول ذو البشرة القمحية والعيون الضيقة والشعر الأسود القاتم الذي جاء بأسطوله بدوره ليحاول اقتطاع قطعة من كعكة الاكتشاف أو أخذها كلها لبلاده إن استطاع فيقول إلياس (لقد اصطحبنا إلى هنا الأسطول الانجليزي والاسترالي .. لحماية منجم اليورانيوم) وهنا يجلس الجنرال مطلع ويقول (وأظنكم ترون خلفي الأسطول الماليزي .. ومما لا شك فيه أن الأسطول الهندي آت في أعقابي .. فخبر اليورانيوم تسرب بسرعة من معاملكم) يتعب الجالسون من إدارة رؤوسهم بين العلماء والجنرال فيقول عبدالله صارخًا (لحظة صمت بالله عليكم .. ما هو هذا اليورانيوم؟) ..

بينما كان العلماء يشرحون للمجتمعين ما هو اليورانيوم وما خصائص هذا المعدن المشع النفيس واستخداماته الحربية في القنابل والرؤوس النووية

والسلمية في محطات الطاقة وخلافه؛ كان يرسو بالقرب من الجزيرة عدة أساطيل حربية؛ فالجزيرة البعيدة عن أي حضارة معروفة كانت بعيدة بقدر شبه متساوٍ بين أكثر من دولة فتواجد الأسطول الاسترالي بمرافقة الأسطول الإنجليزي لكونها تخضع للتاج البريطاني والأسطول الماليزي والهندي وبعض سفن تابعة لجنوب إفريقيا ومدغشقر (الآن تطالب العديد من الدول بملكية الجزيرة بعد أن اتضحت قيمتها العالية وأمامكم من رأيي اختياران) قالها إلياس لقادة الجزيرة فاتسعت حدقات الجميع ترقبًا فأردف قائلًا (الأول اختيار إحدى تلك الدول لتصبحوا مواطنين تابعين لها وتمنحكم جزء من أرباح استخراج المعدن النفيس والثاني إعلان أنفسكم كدولة والسعي لاعتراف بعض الدول بكم وبذلك تحصلون على أرباح الاستخراج لأنفسكم وتعطون الدول التي تعترف بكم مميزات أو نسبة من الأرباح) هنا يتجلى معنى جملة "كأن على روؤسهم الطير" أمام إلياس فالصمت الكامل تجسد في الجالسين أمامه؛ فالأشخاص

الـذين لـم يعرفـوا أي شـيئ عـن العـالم إلا منـذ أيـام قليلـة مطـالبون الآن باتخـاذ قـرار مصـيري لـه علاقـة بالسياسـة الدولية والتجارية والصناعية المعقدة التي لا يعرفـون عنها أي شـيئ بـالمرة (ألا يمكـنكم أن ترحلـوا وتـدعوننا وشـأننا؟) قالهـا شـعيب ببراءة شـديدة فقـال كبير اليهـود (إنهـا أربـاح ضخمة للجميع كيف نتركها؟!) فيقـول كبير القساوسة (لكن الموضوع يحتاج للنقاش والدراسة فالقرار سيغير كل شيئ في حياتنا) يمـط رشـيد شـفتيه ويقـول (إنـه لـيس قرارنـا وحـدنا يجـب استشـارة الجميـع) وهنـا يقـف عبـدالله قـائلًا بحماسـة (وحتى نستشير الجميع يجب أن نفهم أولًا لنستطيع الشرح لهـم .. لـذا يجـب أن نتحـدث مـع الجـاثمين على شـطآننا بـلا اسـتئذان لربمـا وجـدنا فيهم من نطمئن إلى جـواره واتباعـه .. ويجب أن نحاول أن نعرف شيئًا عن سياسات العالم إن كنا سـنفكر في إعـلان أرضـنا كدولـة .. نحـن نحتـاج إلى الوقـت والأهم إلى معرفة العـالم الـذي أحس بأهميتنا فجـأة بسـبب الصخور المترامية على أطراف جزيرتنا) ..

التقت عينا عبدالله بسارة للحظة وهو في طريقه لمغادرة اجتماع القادة فظهر لكل منهما شوق الآخر ولكن أين يلتقون ومكان لقائهم المعتاد أصبح محط أنظار العالم بالمعنى الحرفي؛ لم يكن أمامهم إلا شاطيء البحيرة فقال عبدالله وكأنه يحدث عمه شعيب (أنا ذاهب لشاطيء البحيرة .. أتصحبني يا عماه) وقبل أن يجيب شعيب كان عبدالله قد اختفى من أمامه وتركه لرشيد يقوده للمنزل (أنه لم يسمع ردي؟) قالها شعيب لرشيد فقال (هو لم يكن يحدثك يا شعيب) يهز الشيخ رأسه ويقول (جاءك يوم تُتخذ جسرًا لكلام العاشقين يا شيخ .. أهذا وقت الحب أم الحرب؟) يكتم رشيد ضحكته لكي لا يلاحظ أحد ويقول بصوت خفيض (ارفق بالشاب .. فمنذ شهور لم يلتق بحبيبته) يصمت شعيب للحظة ثم يقول (وما رأيك أنت في ما يحدث يا رشيد؟) يفكر القائد الشاب للحظة ويقول (أظننا في كرب عظيم يا شيخ) ينكس الشيخ رأسه ويقول بصوت رخيم (أتعرف أنني ضرير.. أنت لا تعرف تلك الكلمة فهي من

مرادفات العمى .. ضرير أي ولدت أبصر ثم أصبت بالعمى لكن الجميع يظنني مكفوفًا ولدت أعمى فما رآني إلا القليلون من المعمرين وأنا مبصر.. لقد كنت في الحادية عشر من العمر حين فقدت بصري .. سقطت من أعلى نخلة كنت أتسلقها لأصبح طالعًا للنخل كما كنت أتمنى في صغري ففقدت البصر واضطرتني إعاقتي إلى التخلي عن حلمي في طلوع النخل؛ وكان الأنسب لي حينها دراسة الشريعة والقرآن فوجدت نفسي وعرفت هدفي الأسمى في الحياة .. أترى .. إعاقة غيرت حياتي وجعلتني من حفاظ القرآن ومعلميه بدلًا من طالع للنخل .. صدقني كل الأمر خير ومهما حدث سيكون خيرًا لنا .. ثق في هذا .. ثق في الله يا رشيد) هنا يمران أمام أم عبدالله التي تتعجب من عودتهم بدون ابنها وحين يحاولان تبرير غيابه يجدان المرأة بفطنتها تدرك أنه ذهب للقاء سارة فيتعجب رشيد من فطنتها ويسألها عن رأيها فيما يجري على شاطيء جزيرتهم فترد بثقة وكأنها غير مكترثة بالأمر (خيرًا يا ولدي كل قدر الله خير) .

بذل مغوار مجهودًا كبيرًا لكي يتسلل لبيوت اليهود ويلتقي كبيرهم تلك الليلة .. فلا أحد استطاع النوم بعد قدوم تلك الأساطيل إلى شاطئهم؛ واجتمع الكثيرون يتجادلون حول الأمر في العديد من الأماكن (الوضع ليس في مصلحتنا فنحن أقليات هنا وسينوبنا أقل المنفعة) قالها مغوار لكبير اليهود الذي داعب لحيته بأصبعيه وقال (ذلك لأننا لم ننجح في التفرقة بينهم بالشكل الكافي؛ كم من أقلية تحكم بالتفرقة والوقيعة بين الأغلبيات وتجهيلها وتهميش قوتها .. كنت على وشك إحداث الوقيعة بين المسلمين والمسيحيين بعد أن أقنعت كبير القساوسة أن زواج نسائهم برجال المسلمين محرمٌ في العهدين القديم والحديث؛ لقد عرضت له نسخة إنجيل كتبت فيه بيدي النص فصدقني الرجل ونقله في إنجيله الباهت؛ لكن إمام مسجدكم الماكر تجاهل أمر الزواج وضيع علينا الفرصة وكأنه نزع فتيل الحرب قبل أن تنفجر في وجوههم) يبتسم مغوار بخبث

ويقول(لكنه ما زال يحبها .. لقد لمحتهما معًا عند شاطيء البحيرة أثناء تسللي إلى هنا) يزفر كبير اليهود بحنق ويقول (للأسف ذلك يقوي موقفهما .. فرغم حبهما إلا أنه لم يكرر طلب الزواج أو يثير خلافًا بشأنه .. وحتى إن اختلقنا عن حبهما شائعات الخطيئة فلن يؤدي ذلك إلا لمنعها من رؤيته أو الإسراع في تزويجها وكلا الأمرين ليسا لصالحنا لأنهما سيقتلعان الأمر من جذوره .. من الأفضل لنا ترك الوضع معلقًا علنا استطعنا تفجيره في المستقبل .. والآن يجب أن تنتقل بأتباعك إلى جوارنا .. فذلك يمنحنا بعض العدد في مواجهة معسكري المسلمين والمسيحيين) يمط مغوار شفتيه ويقول (أتباعي وأنتم لن يمثلوا عشر سكان الجزيرة ولن يفيد هذا في شيئ .. وربما فقدت نصف أتباعي عند توجيهي لهم للقيام بهذه الخطوة) يقطب كبير اليهود حاجبيه ويقول بدهاء شديد (عشر السكان يعني وجود ثلاثة فئات على الجزيرة وهذا يمنحنا وضعا أفضل بين المتفاوضين ومغانم أكبر ويقسم المسلمين جزء معنا وجزء وحده ولن يجعلهم

الأغلبية الكاسحة بل سيجعلها بينهم وبين الساكنين خلف الأسوار المنخفضة؛ أما أتباعك فيمكنك إحداث وقيعة بين أحدهم والمسلمين تتخذ قرار الانفصال فور حدوثها .. وهنا لن يعارضك أحد .. وغيابك عن المسلمين يمنحك الفرصة للعودة حين تسوء الأمور في معسكرهم للمطالبة بزعامتك التي انتزعها منك رشيد) صمت مغوار للحظة متأملًا دهاء كبير اليهود كان يراه حكيمًا ولم ير أبدًا الشيطان وهو ينطق من شفتيه الحاقدتين فهو ليس مخدوعًا فيه بقدر ما كان يشبهه.

لم يطل نقاش روبرت وجون وكبير القساوسة حول الأساطيل التي سكنت شواطئهم ؛ كانوا ينتظرون اللقاء المرتقب بمندوبي الدول لاختيار أفضلها؛ لكن ثناء كبير القساوسة على عبدالله جعلهما يتعجبان ويتأكدان أن رفضه للزواج من سارة لم يكن بدافع شخصي؛ وحين عودة

روبرت وولده للمنزل برر جون غياب شقيقته لوالده أنها عند إحدى صديقاتها وأسكنه الفراش ثم خرج باحثًا عنها قبل أن يقلق الوالد من نومه ولا يجدها في المنزل .

(لقد أتتنا الفرصة أخيرًا .. يمكننا الرحيل عن هنا والزواج) قالتها سارة باندفاع وحماسة فنكس عبدالله رأسه وصمت متأملًا شاطيء البحيرة المتلألىء الأمواج فعقبت قائلة (لديك كل الحق ما نحن فيه أولى بالتفكير من أنفسنا) ساد الصمت للحظة قطعها عبدالله بقوله (أتظنين المحتشدين بأساطيلهم الحربية سيسمحون لبعض العزل مثلنا أن يحتفظوا بوطنهم الذي أصبح كنزًا مفتوح الأبواب أمامهم) يظهر القلق على وجه سارة وقبل أن تنطق ببنت شفة يواصل عبدالله حديثه وهو شارد وكأنما يحدث المكان حولهم (تلك الأرض التي تقتات ذكرياتنا وتتنفس أيام حياتنا ستسلب منا لا محالة .. هم يجتمعون فقط لتقرير نصيبهم

من الغنيمة أما نحن فقد ينوبنا بعض الفتات أو لا شيئ على الإطلاق .. بل ربما إن ساءت الأمور أصابنا الضرر) هنا ينبعث صوت جون من خلفهما قائلًا (لا تكن سوداوي الأفكار يا صديقي) يجلس جون وكأنه لم ير أخته فتحمر وجنتها من الخجل وتنصرف في هدوء بعد أن تطبع قبلة على جبين أخيها النبيل الذي ظل صامتًا بجوار عبدالله حتي قال الأخير (أنا لست سوداوي الأفكار.. بالعكس كلي ثقة وأمل في الله .. لكن الوضع الذي نحن فيه فريد من نوعه وواضح النتيجة بشكل مفزع .. إن هؤلاء الجاثمين فوق صدور شواطئنا على استعداد لتفجيرنا بعدة قذائف والاستدارة لتقسيم ثروتنا المكتشفة .. نحن مجرد ذرة غبار في طريقهم) يمتقع وجه جون عندما يستدرك الأمر من وجهة نظر عبدالله فيقول بفزع (لكنهم يتفاوضون معنا؟) هنا يقهقه عبدالله ويقول (يالك من طيب القلب يا جون إنهم الآن يقدرون الموقف ويتفاوضون مع بعضهم البعض .. لكنه لا مانع من إضافة إطار من الشرعية والرأفة بالأمر بالتفاوض معنا وإشعارنا أنَّ

لنا رأي في الأمر.. أترى إن قررت إنشاء بيتك في مكان وكنت تتفاوض مع صاحب الأرض وعمال البناء وكان هنا عش طيور على شجرة ستقوم بإزالتها أيضيرك شيئ لو تركت الطيور في عشها حتى تنهي شراء الأرض والاتفاق مع العمال ثم تأمرهم بالانقضاض على الشجرة واجتثاثها من جذورها .. أتعرف حينها ربما لن تتذكر أن عليها عش طيور) تتسع حدقتا جون ويقول (أنحن بهذا الضعف؟) يبتسم عبدالله محاولًا تخفيف وطئة الموقف ويقول مازحًا (يمكننا اعتبارنا لسنا موجودين في هذه المعادلة من الأصل) وهنا ينفجران ضاحكين.

* * *

كان العراك المفتعل الذي أشعله أحد أتباع مغوار سريعًا وخاطفًا وكان قرار الرحيل المفاجيء لهم خارج الأسوار المتوسطة ليشيدوا أسوارًا بجوار الأسوار المرتفعة ويبدأوا في إنشاء منازل جديدة خلفها مما أكد لرشيد وشعيب وعبدالله أن الأمر مرتب من قبل؛ وبدون مشاورة مع معلمه شعيب صعد عبدالله منبر المسجد وحمدالله وأثنى عليه ثم أعلن للناس أن ما أحدث هؤلاء المنشقين في خطبهم عن هاموراس لا علاقة له بالدين وأن طقوسهم الغريبة بدعًا محدثة وحذر منها ومن اتباعها ثم جلس مرة أخرى (لماذا تسرعت؟) قالها شعيب للشاب الذي جلس يلتقط أنفاسه بجواره فرد عليه (لقد اتبعتك في المرة السابقة وتجاهلتهم وركزت على توضيح الصواب والخطأ كما اتفقنا وكان هذا نعم الرأي حينما كانوا بين أسوارنا .. لكنهم الآن معكسر آخر ويجب عليَّ أن أوضح سمهم للجميع وإلا قصرت في حق الناس) هنا يزفر رشيد بحنق ويقول (والله لولا حرمة الدم وبر والدي الراحل لأطحت رأسه عن جسده وأرحت من

أضلهم من شره)؛ بدأ النهار يصبح قاتم السماء كقتامة أحداثه على الأرض وما هي إلا دقائق إلا وبدأ يطوف على كل معسكرات الجزيرة مندوبو الأساطيل التي أصبحت تحاصر الجزيرة من كل جانب فعليًا ؛ بات جليًا أن القادمين يحاولون التفرقة بين سكان الجزيرة والتفرقة بينهم رغم ودية الوجوه والابتسامات التي تطايرت في كل الأنحاء ورغم الادعاء أن زيارات اليوم هي زيارات تعارف ودية والاجتماع مع الجميع تم تأجيله لوقت آخر؛ لكن الحقيقة كانت كما قال عبدالله فالدبلوماسيون الحقيقيون يقومون بمشاوراتهم خارج الجزيرة وعش العصفور سيهدم لا محالة ولا توجد أهمية لما سيحل بسكانه .

(لماذا فعلتم هذا بنا)؟) قالها عبدالله الواقف أمام حجرة العلماء الثلاثة على يختهم الراسي على الرصيف الخشبي تبادل الثلاثة علماء النظرات مع بعضهم بتوتر فأصابع الاتهام كانت موجهة لهم من عيني عبدالله (لقد أصبحت تتقن الانجليزية في وقت مدهش يا صديقي) قالها إلياس بود وهو يدعو عبدالله للدخول للحجرة لكنه ظل متسمرًا مكانه كالصخرة (أنتم تعرفون أن هؤلاء الناس سيسلبوننا وطننا) ينكس إلياس رأسه فيتقدم عبدالله داخلًا الحجرة ويجلس فيقول تايلر (لكنهم سيعوضونكم بمكان أرقى ومميزات كبيرة) فيقول عبدالله (أتضمنون لنا هذا؟) فيجيب إلياس وانعدام الثقة واضح في صوته (يجب أن يحدث هذا اطمئن) هنا ينكس عبدالله رأسه ويقول(وهل تقبلون استبدال أوطانكم بمكان أرقى ومميزات كبيرة؟) فيقول سيرموند بلامبالاة (اعذرني إنه مكان ناء بدائي لا توجد به أدنى مظاهر للحضارة أو المدنية الحديثة أو التكنولوجيا .. صدقني أنتم الرابحون في هذه الصفقة)

يستاء عبدالله من كلمات سيرموند اللانسانية لكنه يحاول أن يرد عليه بالمنطق ويقول (هي ليست صفقة إنه اغتصاب وطن وتهجير شعبه بأوراق رسمية تحت تهديد السلاح وهذا أمر لا يرضي الله) هنا يقهقه سيرموند ويقول (أخرج إلهك من السياسة الدولية وتحدث بالوقائع فقط لكي تستطيع تفهم الأمر) تتسع حدقتا عبدالله فتلك المرة الأولى في حياته التي يتحدث فيها مع شخص ملحد وجهًا لوجه لكنه يحاول التيقن مما أدركه فيقول له (ألا تؤمن بالله؟) فيقول سيرموند (أنا مجرد عالم قادتني الصدفة لاكتشاف علمي لا دخل لله أو لإيماني به بالموضوع) فيقول عبدالله بحنق (إذن فضياع حياة آلاف من الأشخاص ثمن مقبول لاكتشافك العلمي؟) يحاول إلياس وتايلر التدخل لتهدئة الموقف لكن سيرموند يقول مندفعًا بتعالٍ شديد (أنت لا تفهم العلم أنت تقيس كل شيئ بإيمانك وأنا لا أؤمن بالخالق مثلك) يقول عبدالله بهدوء (ما سبب عدم إيمانك؟) ثم ترتسم على وجهه ابتسامة ثقة تجعل إلياس وتايلر يجلسان مطمئنين أن

النقاش سيكون متحضرًا ولن يتحول لعراك فيرد سيرموند بتحاذق (السبب الأكبر هو هذا الكوكب الوحيد الذي وجدت عليه الحياة؛ أي خالق هذا الذي يوجد الحياة في كوكب واحد من مليارات الكواكب في الكون الممتد إلى ما لا نهاية؛ لو لم يكن هناك حياة على الكثير والكثير من الكواكب فأي خالق هذا الذي يخلق كوكبًا واحدًا ويتابع خلقه عليه ليحاسبهم) هنا يعقد عبدالله حاجبيه مفكرًا للحظات ثم يقول (ماذا لو أن لك قصرًا أسطوريًّا محاط بأراضٍ شاسعة توفر لك الاكتفاء الذاتي .. ونوافذها وشرفاتها سحريتان تطلان على أروع الإطلالات وأبوابها كذلك تؤدي بك إلى أي مكان تريد الذهاب إليه فورًا؛ ولك الأمان والحرية والمطلقان فيه ويتسع ليسع كل أبنائك وأحفادك وذريتك للأبد؛ ترى أإذا امتلكت قصرًا كهذا وحدك ولا أحد يملك مثله أو يستطيع أن يمتلك حتى ما يضاهيه أيعنيك امتلاك أي قصور أخرى) يفاجأ سيرموند بما قاله عبدالله ولا يفهم علاقته بالموضوع لكنه يجيب (بالطبع لا؛ فلي كل احتياجاتي

ورغباتي ولي الأمان والحرية والمستقبل لمن بعدي؛ ولا أحد يستطيع حتى أن يمتلك ما أمتلك) فتتسع ابتسامة عبدالله ويكمل حديثه قائلًا (كذلك الله والمثل الأعلى له؛ خلق في الأرض كل ما يشاء ليختبر البشر بكل الأشكال والأطوار وله الأمان والحرية المطلقان في فعل ما يريد؛ ومهما ازداد عدد البشر فالكوكب وما حوله سيتسعان لهم؛ ولا أحد يستطيع أن يملك ما يملك أو أن يملك ولو جزء منه؛ فحتى إن لم يخلق الله مخلوقات تختبر إلا على هذا الكوكب فله العظمة المطلقة في الكون؛ تمامًا كمالك القصر الأسطوري في مثالي السابق؛ هو لا يحتاج قصورًا أخرى وامتلاكه لأخرى لن يزيده عظمة في الامتلاك) هنا يعلو صوت جون مناديًا عبدالله وهو واقف على الرصيف الخشبي دون أن يصعد اليخت فيتبادل العلماء النظرات مع عبدالله الذي يقف ويقول (لقد جئت مع صديقي لكني كنت أحتاج إلى أن أختبر إجادتي للإنجليزية فوجوده بجواري قد يفقدني الثقة وأسأله

عن شيئ؛ كما أنه لا يرى طائل من الحديث معكم أو عتابكم).

بعد أن قسمت الدول الغنيمة فيما بينها قررت عقد الاجتماع مع قادة سكان الجزيرة لتنتهي من خطوة إبلاغهم حضر الاجتماع مندوب عن كل دولة والثلاثة علماء وبعض المترجمين وحضر رشيد وشعيب وعبدالله من المسلمين وكبير القساوسة وروبرت وجون عن الساكنين خلف الأسوار المنخفضة وكبير اليهود ومساعده ومغوار عن الساكنين خلف الأسوار المرتفعة؛ كان مغوار مزهوا بنفسه بعد أن منحه اليهود الحق في حضور الاجتماع معهم وبدأ يشعر بأنه اتخذ قرارًا صائبًا حكيمًا فرمقه عبدالله بنظرة إشفاق جعلته يشرد للحظة .

وقف الجنزال الماليزي يتلو ما اتفقت عليه الدول (اتفقت الدول التي تقع الجزيرة فيما بينها وفي حدودها البحرية على جعل الجزيرة ملكية مشتركة لهم تقتسم إدارتها وخيراتها بينها ويمنح أي فرد من سكان الجزيرة الحق في الانتماء لأي جنسية يرونها من جنسيات تلك الدول كما يتمتع كل فرد منهم بمنزل وراتب شهري مجزي طوال حياته من تلك الدولة التي يختار الانتماء لها .. أما قادة الجزيرة فلكل منهم مبلغ مليون دولار أمريكي كمنحة إضافية .. إلى أن يبدأ إخلاء الجزيرة فور توقيع هذا الاتفاق) ينهي الجنرال مطلع قراءة البيان ويبتسم وهو يطوي الورقة ويبرز أوراق توقيع الاتفاق والأقلام لقادة أرض اليورانيوم ليوقعوا عليها قائلا بلهجة آمرة حاول أن يظهرها ودودة (إنه اتفاق أكثر من مرضٍ .. وقعوا هنا) وهنا قهقه شعيب للحظات وحده وسط دهشة مندوبي الدول والعلماء التي تضاعفت عندما

تبع قادة الجزيرة شعيب لنوبة الضحك واحدًا تلو الآخر ثم تبعهم العلماء وبعض مندوبي الدول حتى أنهى الجنزال الماليزي الأمر بصرخة حازمة أتبعها بكلمة (كفى) فبدأ شعيب يتحدث (إعذرني يا جناب القائد العسكري أنا رجل أعمى تجاوزت السبعين ولا أستطيع مقاومة الضحك فبعد ما رآه القلب من مآسي في أعوام الحياة الطويلة .. ينتظر شيئًا يضحك كتمساح ينتظر فريسته لساعات داخل الوحل) يمتقع وجه الجنرال ويقول بحيرة وحنق (وما المضحك فيما قيل .. يا سيد .. ما اسمك؟) قبل أن يتمادى الجنرال في تمثيل نسيان اسم شعيب يقول الرجل (إن نسيانك لاسمي بادرة خير فهذا يعني أنك في المستقبل ستنسى أمر أرضنا سريعًا) يظهر التوتر على وجوه مندوبي الدول فيواصل شعيب حديثه (المضحك فيما قلته يا سيادة القائد الحربي أنكم قررتم احتلال أرضنا وترحيلنا منها وتوزيع ما بها من خيرات على دولكم .. وجلستم تبلغوننا بهذا ظنًا منكم أن منزلًا أو راتبًا شهريًا سيغري أي من سكان

أرضنا على بيع وطنه .. أو ربما رشوة المليون دولار لكل قائد ستسيل لعابنا فنوقع مسرعين .. عفوًا أنا لا أملي على الحاضرين إرادتي أنا أجيب السيد مطلع على تساؤله عن سبب ضحكي ليس إلا .. أرأيت يا رجل المعارك أنا أذكر اسمك .. ذاكرتي أقوي) هنا يمط الجنرال شفتيه ويتبادل نظرات ونقاش سريع مع مندوبي الدول ثم يقول (تشاوروا بالأمر ولنأخذ استراحة لساعة ثم نكمل الاجتماع لتوقيع الاتفاقية) كان الحزم في صوت الرجل واضحًا ولهجة الأمر لا شك فيها .. قام مندوبي الدول ومترجميهم تاركين المجال لقادة الجزيرة للتشاور في حين جلس العلماء مع القادة وبدأ سيرموند الحديث (نحن نعتذر لكم أننا كنا سبب ما يحدث .. لكنه أمر غير متعمد منا .. مجرد اكتشاف علمي له تبعاته) كان سيرموند حزينًا شاردًا يحاول الهروب بعينيه من عيني عبدالله فحديثهما السابق عن وجود الخالق ما زال يتردد في ذهنه ويشتت أفكاره ؛ هنا يقول إلياس (إنه عرض رائع .. يمكنكم المفاوضة في البنود إن أردتم لكنه أفضل ما يمكنكم

الحصول عليه من حيث المبدأ) هنا يتهلل وجه كبير اليهود ويقول(أنا أرى هذا أيضًا .. لكننا سنتفاوض في المبلغ الممنوح للقادة .. سنجعلهم يدفعون لكل قائد عشرين مليونًا وليس مليون واحد فقط) يرمقه عبدالله بنظرة نارية ويقول بحنق (ألا تفكر في بقائنا بأرضنا .. ألا يعني لك هذا الوطن شيئًا؟) يتوتر الموقف للحظة فيقول تايلر (أظنكم يجب أن تتناسوا فكرة البقاء والاحتفاظ بأرضكم .. فهذا شيء شبه مستحيل .. إن ما بأرضكم ليس مجرد بترول أو ماس أو ذهب والموضوع ليس ثراء مادي فحسب؛ إنه اليورانيوم أي الطاقة الذرية ومن يمتلك أكبر مصادرها سيصبح سيد العالم) هنا يقول روبرت (وماذا سيحدث إن رفضنا عرضهم؟) تمتقع وجوه العلماء الثلاثة فيقول كبير القساوسة (سيجبروننا بالقوة على ترك المكان .. أليس كذلك؟) هنا ينبعث صوت من بعيد يقول بالعربية (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) فيلتفت الجالسون لمصدر الصوت ليروا رجلًا بعمامة ورجلًا آخر يرتدي زيًا كنسيًا

وثالثًا يرتدي زيًا أسودًا ويحيط الثلاثة عدد كبير من رجال الحراسة ويتبعهم عدد كبير من المصورين والإعلاميين كان هؤلاء شيخ الأزهر وبابا الفاتيكان وأكبر حاخام في معبد اليهود والذين جاءوا لتفقد هؤلاء البشر الذين استطاعوا التعايش بسلام معًا على تلك الأرض رغم اختلاف دياناتهم .. أو هكذا قالوا ..

* * *

اندهش شيخ الأزهر من دقة نقل العلم لدى سكان الجزيرة من المسلمين فأثنى على الإمام الراحل مؤمن

السوهاجي ودعى له؛ أما البابا فقد أجاب على تساؤل روبرت حول زواج ابنته المسيحية برجل مسلم بأنه أمر غير محبب ولكنه يحدث في العديد من أرجاء العالم وتجيزه بعض الكنائس؛ أما كبير اليهود والحاخام فقد دار بينهما حوارًا مختلفًا تمامًا فالحاخام منحهم عدد من أسلحة أفراد حراسته الذين تولوا تدريبهم سريعًا على استخدامها فوجودهم كأقلية كان يقلق الحاخام خاصة مع الوضع المتأزم الراهن .

في نهاية الزيارة حذر أحد أفراد حراسة شيخ الأزهر رشيد من كون حراس الحاخام ربما منحوا اليهود سلاحًا فعندما جاءوا كان مع كل منهم أكثر من مسدس وعند انتهاء زيارتهم عاد كل منهم بمسدس واحد فقط؛ استشاط عبدالله غضبًا عندما سمع بالأمر من رشيد وما كان منه إلا أن اتجه للساكنين خلف الأسوار المنخفضة واتفق معهم على التوجه

للساكنين خلف الأسوار المرتفعة وسلبهم الأسلحة فورًا وإلا كانت العاقبة وخيمة

(أخرجوا كل ما منحكم حراس الحاخام من سلاح .. وإياكم وإخفاء شيئ .. ولتعلموا أننا سنفتش أرضكم شبرًا شبرًا) قالها رشيد الواقف وخلفه قرابة نصف سكان الجزيرة من المعسكرين؛ أدرك كبير اليهود أن ما لديه من سلاح لن ينفعه في شيئ أمام تلك الجموع الغفيرة فالمشاعل في أيديهم حولت الليل إلى نهار مضيء ويمكن أن يحرقوا معسكره بمن فيه في لحظات فما كان منه إلا أن رضخ لتحذير رشيد وفتح أبواب معسكره وألقى رجاله ما معهم من سلاح على أرض الساحة التي امتلأت برجال معسكري المسلمين والمسيحيين الذين قاموا بجمع الأسلحة فقال كبير اليهود بخبث محدثًا عبدالله وجون (وفي أي يد من أي أيديكم سيكون هذا السلاح) أدرك عبدالله خبث جملة

الرجل فأجابه بحزم (ومن قال لك أننا سنحتفظ به سوف نقوم بإتلافه؛ لا حاجة لنا بالأسلحة التي تزهق الأرواح وتسيل الدماء وتعين الشيطان على فتح أبواب الفتنة بيننا) هنا يظهر شعيب بين الجموع ويستند على عبدالله ويصرخ في الجمع الذي تسوده الهمهمات حوله ليصمت وعندما يحل الصمت ولا تبقى صوت أصوات الريح والليل يقول بصوت تتخلله نبراته الأحزان (أيها الناس .. يا من ولدتم أنتم وآباءكم وأجدادكم هنا .. إن المنتظرين على شواطئنا قوم يدعون التمدن والتحضر والرقي ولكنهم في حقيقة الأمر مجرد عصابات منظمة تستقوي بما لديها من سلاح وجيوش لسلبنا الوطن الذي نمتلك من أجل بضع صخور تمكن مالكها من قتل الملايين في غمضة عين .. إني أرى الشتات في الأرض وفقد الوطن مقبل علينا وليتني أستطيع أن أبشركم النصر والحفاظ على أرضنا التي سقيناها أعمارنا وذكرياتنا .. أيها الناس إن الخطر محدق بنا .. فإما أن تقبلوا هوان الرحيل الجبري وإما أن تتمسكوا بوطنكم فانظروا ما أنتم

فاعلون .. اللهم إني قد بلغت اللهم فاشهد) قالها شعيب ثم سقط أرضًا وكأن الكلمات استنفذت ما لديه من طاقة؛ لكن عبدالله الذي افترش الأرض بجواره ليطمئن عليه وجده يردد الشهادتين عدة مرات ثم يلفظ أنفاسه الأخيرة

خيم الحزن على سكان أرض اليورانيوم وكأنهم في جنازة الحياة نفسها؛ فوفاة شعيب المحبوب لدى الجميع والتي جاءت مقترنة بهذا الهم الجماعي كانت فوق احتمال قلوبهم التي تعودت الصفاء في أغلب الأوقات

وقف روبرت على سطح يخت العلماء يتفقد الأساطيل التي احتلت المحيط من حوله فجاءه صوت العالم تايلر من خلفه وهو يقول (إليك ما طلبت من مضادات حيوية .. أنا سعيد لتحسن صحتك بهذا الشكل) ناول تايلر الدواء لروبرت فهز رأسه ممتنًا وقال (لقد ساعدتم في إطالة

عمري وكنتم السبب في سلبي وطني .. قل لي يا رجل .. أمن صنعوا كل تلك الأساطيل يعجزون عن تركنا وشأننا .. أليس فيهم من يتبعون تعاليم المسيح .. أدعى المسيح لاغتصاب أوطان الغير بالقوة) نظر روبرت في عيني تايلر لكنه أشاح بوجهه عنه ليتهرب من تلاقي أعينهما وقال وهو يتأمل المحيط المختنق سفنًا وقال (إنه الخوف يا سيدي .. لا تندهش فأقوى الأقوياء يعيش الخوف أكثر من أضعف الضعفاء .. لكنه خوف من أن يقوى الضعفاء فتتبدل الموازين ويتغير كل شيئ .. إن الأقوياء أكثر خوفًا من الضعفاء أنفسهم) ينكس روبرت رأسه ويقول بغضب (لكن لك لا يعطيهم الحق في قهرنا وسلبنا أرضنا) يربت تايلر على كتفي الرجل العجوز ويقول (لقد حدثت إبادات جماعية لشعوب عديدة لأسباب أتفه من ذلك .. إننا ندعي الفضيلة ونرفع أيدينا الملطخة بدماء الأبرياء إلى السماء دون خجل) .. ساعد تايلر روبرت على مغادرة اليخت وعاد لحجرة العلماء فوجد إلياس وسيرموند متمددان على أريكتين في سكون فقال (ألا

تشعرون بتأنيب الضمير.. لقد هدمنا حياة هؤلاء البسطاء بدلًا من أن نساعدهم) وهنا يتنهد إلياس ويقول بسخرية (لقد قمنا باستغلالهم كفئران التجارب والآن أتى وقت إلقائهم في سلة مهملاتنا ومواصلة الأبحاث والاكتشافات للحصول على المزيد من المجد العلمي والثروات) ينظر العلماء لبعضهم بأسى فيقول سيرموند (لكننا نستطيع أن نحاول مساعدتهم .. يمكننا أن نبلغ الإعلام برفضهم مغادرة أرضهم) يقطب تايلر حاجبيه ويقول (وبماذا سيفيد هذا؟) هنا يقف سيرموند ويمسك بهاتفه المحمول ويقول (سيمنحهم بعض الوقت .. وربما شروطًا أفضل في التفاوض) هنا يتحمس العلماء لفكرة سيرموند ويبدأ كلًا منهم في التواصل مع من يعرف من إعلاميين وصحفيين .

جلس عبدالله ورشيد وجون على شاطيء البحيرة في تلك الليلة الحزينة؛ كانوا يظنون أنهم سيصطادون السمك

لكنّ الحزن كان أقوى فجلسوا صامتين يلقون الأحجار في الماء (أتعرفون أني في البداية كنت أشك في كونه أعمى .. فمن الصعب تخيل رجل بكل هذا العلم وهو غير مبصر؛ كنت أحاول التأكد بطرق طفولية .. أتدورن ما كان يحدث؟) قالها عبدالله ونظر لجون ورشيد فوجد الفضول يظهر في أعينهم فوقف يتحدث بحماسة وقال (كان يعرف .. ويقول لي أتظنني لا أراك لأني فقدت العينين .. إن حواس الإنسان كثيرة وأقواها البصيرة .. حينها كان شكي يزداد فيه وفي أحد المرات حاولت التأكد بشكل حاسم فوضعت حجرًا في طريقنا للمسجد ؛ مجرد حجر يكفي لعرقلته وسرت أمامه اقتاده كعادتي وحينما بلغت قدمه الحجر تعثر فيه ووقع .. هناك تأكدت من عماه وتأكدت من بصيرته فقد كان متأكدًا مما فعلته فور وقوعه وقال لي وهو يضحك ألم تجد طريقة أقل إيلامًا لتتأكد من عمى عمك أيها الأحمق) هنا ينفجر الثلاثة ضاحكين فيقول رشيد (أتعرفون أنني عرضت عليه دارًا أفضل من داره فرفض .. كانت دارًا في مواجهة المسجد

ومؤثثة بشكل كامل .. لكنه أصر على الرفض وقال لي وكيف أنهاك عن ظلم بعدما تهديني دارًا .. إن العلماء ورثة الأنبياء طالما اتقوا الله وحده ولم يعينوا حاكمًا على ظلمه أو طالب ملك لوجه الدنيا على التمرد وهم لن يستطيعوا أن يكونوا كذلك إن قبلوا العطايا والهدايا ورغبوا في التنعم ورغد العيش) هنا يقول جون وعيناه شاردتان (ترى أسنستطيع العيش في العالم الذي انتزعنا منه لمئات السنين .. أسنفتقد هذه الأرض أم ننساها بأرض جديدة؛ أسنكون جزء من العالم أم مجرد مسوخ قادمة من الماضي في عينيه الجاحدتين .. لماذا سكن هذا المعدن اللعين أرضنا .. لماذا خلقه الله وهو يسبب كل هذا الدمار؟) أنهى جون جملته ونظر لأعين عبدالله ورشيد باحثًا عن إجابات تساؤلاته فنكسا رأسيهما وعاد الصمت ليخيم عليهم فجاءهم صوت من خلفهم يقول (هو عالم يصر على أن يكون محير وغير مفهوم) يلتفت الثلاثة ليجدوا المتحدث مغوار فيرمقونه بنظرة دهشة لم تمنعه من الجلوس بجانبهم ليصمت

للحظة ثم يواصل الحديث قائلًا (كنت رابعكم عندما كنا صغارًا .. لكنكم كنتم أطفالًا مؤدبين ففضلت صحبة الأشقياء عليكم .. كان الحقد يتقد في نفسي حينما أرى الكل يثني عليكم ويوبخني لما أنا عليه .. وها أنا اليوم أصاحب أشقى الأشقياء .. تركت أهلي وأبناء ديني وسكنت مع الغرباء .. لا تتعجبوا .. أتدرون رغم عداوتنا فأنا أشعر بالطمأنينة بينكم ولا أشعر بها وسط حلفائي المتشحين بالضغائن) هنا يلمس الثلاثة صدق مغوار بعدما سالت دمعة على جبينه فقال رشيد (وهل ستظل حليفًا لهم يا أخي؟) يزفر مغوار ويقول (وماذا سيفيد التحالف من عدمه الآن .. والكل مطرود من أرضه لا محالة) هنا تبدأ الطائرات المروحية التابعة لوكالات الأنباء تظهر في السماء فوقهم وهي تصور الجزيرة ثم الأساطيل الواقفة أمام شواطئها فتتسع حدقتا عبدالله بعد أن أتته فكرة فجلس يرويها لرفقائه الثلاثة وهم يتابعون الطائرات المروحية التي تظهر واحدة تلو الأخرى في السماء .

اجتمع أهل أرض اليورانيوم في أكبر الساحات مشكلين دائرة وقف بداخلها عبدالله يقول (أعرف أن منكم من يريد أن يؤثر السلامة ومنكم من يريد الاستفادة من الموقف والخروج بأكبر المكاسب الممكن .. لكن أعرف أيضًا أن معظمكم مثلي يريد أن يبقى في أرضه ووطنه ولا يريد شيئًا من ذلك العالم المليء بالأطماع والأحقاد .. وأعرف أننا لا طاقة لنا بمواجهتهم ولا أمل لنا في الانتصار.. لكننا لابد وأن نواجه هذا الطغيان حتى وإن كان كل ما بأيدينا هو إعلان رفضنا له .. فالرضوخ له لن يزيده إلا طغيانًا ووعود هؤلاء كالسراب كلما اقترب موعدها ابتعدت .. يجب أن نعلن رفضنا ليعرفوا أن قوة أسلحتهم أقل بكثير من قوة إيماننا بقضيتنا وأن حشودهم لا شيئ أمام الإرادة التي خلقها الله في نفوسنا) في تلك اللحظة لم يعد أحد يفكر في الاستسلام حتى كبير اليهود الذي كان يتوق للتفاوض

والحصول على المزيد من المنح والعطايا نكس رأسه وآثر الصمت .

عندما اقتربت قوارب مندوبي الدول من شاطيء الجزيرة رأت مشهدًا لم تظنه ممكنًا لقد امتلأ الرصيف الخشبي والطريق المؤدي للجزيرة والممرات بين الأشجار بالبشر ؛ بشر صامتون يحملون لافتات بالعربية والانجليزية مكتوب عليها جملة واحدة (ارحلوا عن أرضنا) حاول الجنرال مطلع التحدث مع الواقفين فلم يرد عليه أحد وعندها استشاط غضبًا وخاصة عندما بدأت مروحيات الأخبار تصوير المشهد فما كان منه إلا أن قال (تذكروا أنني حذرتكم .. ستندمون)

* * *

على قدر ما هدأت الأوضاع على الجزيرة لعدة أيام إلا أنها اشتعلت في جميع أرجاء العالم بعدما تناقلت وسائل الإعلام أخبار ما يحدث في أرض اليورانيوم وهنا بدأت الأمم المتحدة تعقد الجلسات ويصدر القرارات لمجلس الأمن للحفاظ على حياة سكان أرض اليورانيوم ومنع حدوث حرب عالمية ثالثة بسببها وفي حين كان الموضوع يشغل وسائل الإعلام جلس قادة الجزيرة مع العلماء يفكرون فيما يمكن أن يحدث لساعات طويلة دون جدوى فقد كانت الاحتمالات والسيناريوهات المحتملة كثيرة جدًا وبعد انتهاء أحد الاجتماعات بوقت متأخر من الليل وحين هم المجتمعون على الانصراف احتل هدير المروحيات سماء الجزيرة . مروحيات تكاد تسد السماء من عددها الغفير ؛ وما هي إلا لحظات وبدأت السماء تمطر جنودًا مددجين بالسلاح وسط دهشة وفزع سكان أرض اليورانيوم .. بدأ الجنود في إخضاع الجميع بتهديد السلاح ثم جمعوهم في الساحة الكبيرة وكأنهم أسرى حرب (من هؤلاء؟) قالها جون

لعبدالله (الغزاة الحقيقيون .. فهم من تعدوا على حرمتنا وأرغمونا على إرادتهم دون نقاش) هنا قال إلياس (إنهم قوات حفظ السلام التابعة لمجلس الأمن) يهز جون وعبدالله رأسيهما ثم ينفجرون ضاحكين فتنتاب الجميع نوبة ضحك تثير توتر الجنود ويحاولون نهيهم عن الضحك دون طائل فتركوهم وشرعوا في إعداد مخيمات المبيت للجنود فوضح للجميع أنهم ينتوون البقاء.

عندما أشرقت الشمس كان الأسطول الأمريكي قد أحاط الجزيرة وأرغم بقية الأساطيل على التراجع للخلف .. يصل لسطح الجزيرة جنرال أمريكي يمسك بمكبر صوت ويقول بلهجة حازمة (حفاظًا على أرواح سكان الجزيرة .. وللحول دون حدوث حرب عالمية بين الدول على ملكية هذه الأرض .. قرر مجلس الأمن وضعها تحت سلطته وترحيل أهلها إلى جزيرة أخرى على بعد عدة كيلومترات ليس إلا، تم

إعداد معسكر لاجئين بها حتى يتم إنهاء إجراءات نقلهم إلى العالم المتحضر.. نرجو الهدوء والالتزام بتعليمات الجنود والانتقال إلى قوارب الترحيل) ساد الصمت المشهد للحظات وهنا بدأ عبدالله يصفق بايقاع منتظم فتبعه الجميع واحدًا تلو الآخر وبدأ ينشد أغنية أهالي الجزيرة القديمة (الله الله لله .. الله الله لله) فتعالت الأصوات بالأنشودة وهم يسيرون باتجاه قوارب الترحيل وسط دهشة الجنود والجنرال الأمريكي

لم ينكس أحد رأسه بل ظل الجميع ينشد بسعادة وهنا نظر روبرت لابنته سارة فوجد عينها تبحثان عن عبدالله وسط حشود السائرين نحو القوارب فأمسك بيدها وسار نحو عبدالله عابرًا الزحام واستوقفه بصعوبة بندائه الذي كان يتلاشى وسط النشيد الذي يتردد في الأرجاء .. لم يفهم عبدالله سبب استيقاف روبرت له في البداية لكن

الابتسامة على وجه سارة أخبرته أن أبيها وافق أخيرًا على زواجهما فعانق عبدالله روبرت هنا ظهر كبير القساوسة خلفهم فظن عبدالله وروبرت أنه سيظهر رفضه لكن الرجل سرعان ما ابتسم وعانق كليهما فبدأت الزغاريد تعلو لتمتزج بالنشيد .

صعد العلماء إلى يختهم والحنق باديء على وجوههم لما آل إليه الأمر ثم انطلقوا خارجين من بين سفن الأسطول الأمريكي فقال تايلر لرفيقيه (أسنتركهم الآن؟) يمط إلياس شفتيه ويقول (أبدًا) وهنا يقول سيرموند (إن صمود هؤلاء الضعفاء العزل أمام كل تلك القوى الغاشمة .. سيلهم العالم .. ربما تغير كل شيئ بعد هذا اليوم.. ربما) هنا يقول إلياس بحماسة (بل بالتأكيد يا صديقي .. لقد أسقطوا خرافة الاختلاف بعد أن عاشوا معا كل هذه الأعوام في سلام

.. وأثبتوا أن الصراعات إنما نصنعها بأنفسنا ولسنا مجبرين عليها).

جلست سارة بجوار عبدالله وأمه في قارب الترحيل فقالت الأم بسعادة (أخيرا ستتزوج أيها المضرب عن الزواج .. ولكن يجب أن تخبر أبيها أننا لم نعد نمتلك شيئًا) يبتسم عبدالله ويقول (أهذا وقته يا أماه؟) هنا تبتسم سارة وتقول (اطمئني يا أم عبدالله .. أبي مثلكم لم يعد يملك شيئًا .. لقد أصبحنا متساويين تمامًا في الثروة فكلانا لا يملك أي شيئ) تتعالى ضحكات الثلاثة فيجلس جون وروبرت ورشيد وكبير القساوسة بجوارهم حينها يقترب مغوار خجلًا ثم يهم بالاتجاه لقارب آخر فيرحب به رشيد قائلًا (أقبل يا أخي إن العالم يتسع للجميع) فيركب مغوار القارب معهم ويعود الجميع إلى ترديد النشيد .

وقف الجنرال مطلع يراقب بنظارته المعظمة سكان أرض اليورانيوم وهم يركبون قوارب الترحيل مبتسمين سعداء ويرددون الأناشيد ؛ نظر للسماء فوجدها خالية من مروحيات الأخبار بعدما صدر قرار بمنع النشر حول الموضوع فنكس رأسه وقال (إن قدرة الضعفاء على الابتسام في وجه من يقهرونهم هي قمة الانتصار) .

تمت بحمد الله

رواية أرض اليورانيوم

الفكرة يناير ٢٠١٦

كتبت في الفترة من مارس ٢٠١٨ إلى يونيو ٢٠١٩

خالد الشيباني

*** شاعر وروائي ومؤلف سينمائي مصري من مواليد ١٩٧٩**

*** درس الإعلام وتخصص بالصحافة وعمل في العديد من الجرائد والمجلات المصرية والعربية ثم تفرغ للكتابات الأدبية والفنية .**

*** عضو إتحاد كتاب مصر .**

*** عضو جمعيتي المؤلفين المصرية "الساسيرو" والفرنسية "الساسم"**

***أول من جمع بين فنون الكتابة الفنية والأدبية الأربعة الشعر والرواية والأغنية والسيناريو.**

*** تغنى العديد من المطربين بأغنيات بالعامية المصرية من تأليفه من أشهرها:**

"شكرًا ع الرسالة"جنات ؛ "حب من غير أمل " سوما ؛

"في ست إيام – عصفورة طايرة" بهاء سلطان ؛

"حاميها وحراميها - كلنا عبادك - حارة مزنوقة " نادر أبو الليف

"عيلين بيحلموا" مي كساب ؛ "قلبي حب" هيفاء وهبي

"لون شعرك – تفاحة آدم" كريم أبو زيد ؛
"مشيت في سكة – مش بعيد" أكمل رسلان ؛
"من هنا ورايح" ليلى غفران
والكثير غيرها .
* كتب العديد من أشعار الأعمال الدرامية منها مسرحيات:
"أنا الرئيس" ؛ "سنو وايت"
ومسلسلات "حاميها وحراميها" ؛ "كلبش" ؛ "البارون"
وأفلام "حارة مزنوقة" ؛ "برد الشتا"
* ألف عددًا من الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية منها فيلم "فوبيا "

الجوائز والتكريم

التكريم من جامعة عين شمس على مجمل أعماله الفنية والأدبية

فاز بجائزة أفضل قصة وسيناريو وحوار من مهرجان "ساقية الصاوي" عن فيلمه القصير "دور شطرنج" الذي فاز بأكثر من جائزة في مونديال القاهرة للإذاعة والتلفزيون ومهرجان علوم الإعلام ومهرجان يوسف شاهين وشارك بالمسابقة الرسمية في مهرجان الأسكندرية السينمائي الدولي ومهرجان جرش الدولي بالأردن.

فاز بجائزة شهادة التميز في الشعر من المهرجان القومي للمسرح عن أشعار مسرحية سنو وايت وهو أول شاعر يحصل على جائزة في الشعر من المهرجان في تاريخه .

صدر له

باق من الزمن حياتك	(ديوان شعر)	٢٠٠٢
رحلة الليل وحكايات النهار	(ديوان شعر)	٢٠٠٤
مجلد "السينما حياتي"	(٧ أفلام في كتاب)	٢٠١٠
معاهدة سلام مع القمر	(ديوان شعر)	٢٠١٢
عرشٌ لكل مواطن	(ديوان شعر)	٢٠١٤
الوصية	(أولى روايات ثلاثية تركة العم حسَّاب)	٢٠١٦
الحب والبارود	(ديوان شعر)	٢٠١٧
بلا جدران	(رواية)	٢٠١٧
ابن غير شرعي	(ثان روايات ثلاثية تركة العم حسَّاب)	٢٠١٨
الحرف السادس	(رواية)	٢٠١٨
رحيل المجرة	(ديوان شعر)	٢٠١٩
الميراث المفقود	(ثالث روايات ثلاثية تركة العم حسَّاب)	٢٠١٩
أرض اليورانيوم	(رواية)	٢٠١٩

قيد الطبع

بديل عربي	(رواية)
زئبق وفضة وآخرون	(ديوان شعر)
عشرون قصة حب	(ديوان شعر)
دروب السماء - في عشق الله	(ديوان شعر)
ألفية القدس	(ألفية شعرية)

للتواصل مع الأديب المصري

خالد الشيباني

الموقع الرسمي :

www.shaibany.com

فيس بوك :

facebook.com/khaledshaibany

لترك رسائل وتعليقات :

khaled_alshaibany@hotmail.com

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

ج . م . ع
(+٢) ٠١٠٦٥٥٣٤٥٤١
(+٢) ٠١٢٠٨٨٦٨٨٢٦

ببلومانيا للنشر والتوزيع